

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تم تحميل هذه المادة من:

مكتبة المهتدين الاسلامية لمقارنة الاديان

<http://kotob.has.it>

<http://www.al-maktabeh.com>

دراسات الإسلام

تصدرها
وزارة الأوقاف

المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية



الإسلام أنصف المرأة

(أباطيل تدفعها حقائق)

للكاتب عبد الفتى عوض الراجى

وزارة الأوقاف

تصدرها المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة

العدد ٢٠٥

دراسات في الإسلام

تصدرها
وزارة الأوقاف

المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

الإسلام أنصف المرأة

(أباطيل تدفعها حقائق)

للككتور عبد الغني عوض الراحمي

العدد ٢٠٥

السنة الثامنة عشرة

١٥ من ربيع الثاني سنة ١٣٩٨ هـ

٢٤ من مارس سنة ١٩٧٨ م

بشرف من إصدارها، وزارة الأوقاف

جمهورية مصر العربية

المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية



الله

جل جلاله

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

قال تعالى :

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »

(صدق الله العظيم)

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ، وعلى آله وأصحابه ، والتابعين .

وبعد . .

فموضوع هذا الكتاب : مقال مترجم عن مجلة ألمانية تصدر بمدينة هامبورج تحت اسم (شتيرن) وهو لكاتب اسمه «جورديان ترولر» شاركته في إعداده كاتبة اسمها «كلاوده ديفارجه» وهذا الكاتب : يتحدث عن مشاهداته في بلاد العروبة والإسلام ، البلاد التي مرَّ بها ، وتنقل فيها ، وعاش في أرجائها من الزمن ستين - على ما يقول - ثم لما رجع إلى بلاده أخذ يقدم حصيلة رحلته في أسلوب مبالغ فيه ، متهجماً على العرب والمسلمين . مفترياً على الدين الإسلامي ، ورسوله - عليه الصلاة والسلام - .

وأرى قبل أن نخوض في بحث المقال ، والرد عليه . أن نذكر ملاحظتنا على ظروف المقال ، وملابساته . تلك الظروف والملابسات التي تلخص في الآتي :
أولاً : المجلة التي نشرت المقال اسمها «شتيرن» ويحمل نفس هذا الإسم عصابة صهيونية ، مشهورة من طراز عصابة الهاغانا وغيرها من العصابات الصهيونية الكثيرة ، العاملة في فلسطين ضد العرب والمسلمين . فكاتب في مجلة تحمل اسم عصابة صهيونية مشهورة . هل يمكن أن يكون منصفاً مع العرب والمسلمين ؟ إنني أترك الجواب لحرية القارئ ، ولا أقول لذكائه . لأن الجواب

ليس في حاجة إلى ذكاء (١) .

ثانياً : الكاتب باعترافه لم يعيش في بلاد الشرق والعروبة والإسلام على سعتها وطولها وعرضها ، أكثر من سنتين . فهل تكفي هذه المدة القصيرة لدراسة أحوال العرب والمسلمين دينياً ، واجتماعياً وأخلاقياً دراسة كافية تخول للكاتب أن يكون عميقاً في أبحاثه . دقيقاً في أحكامه ؟ الجواب ؛ في نظري : لا .

ثالثاً : الكاتب غير معروف في الأوساط العلمية العالمية ، وليس من المستشرقين الدارسين ، المعروفين بتخصصهم في الدراسات العربية والإسلامية ، وليس له اسم معروف في دراسة الأديان ، والتعمق في أبحاثها ، وأسلوبه وأفكاره ، وتعليقاته : تدل على أنه رجل سطحي ، لا يزيد عن أنه مراسل مجلة فاشل ، ومبالغ ، وغير متعفف عن الكذب .

رابعاً : من المقرر الثابت المعروف لدى الجميع : أن الصهيونية والاستعمار متجاوبان ، ومتعاونان في مجال عداوة العرب والمسلمين ، فالعرب والمسلمون إجمالاً اليوم في حالة حرب بينهم من جانب وبين الصهيونية والاستعمار من جانب آخر . فالاستعمار لا يريد أن يرحل عن بلاد العرب والمسلمين ، وإذا رحل من الباب حاول الرجوع من النافذة ، والصهيونية ربيبة الاستعمار وصنيعته ، ورأس الحربة التي يسددها إلى صدور العرب والمسلمين ، فتستأسد باسمه وتعتدى على العرب لحسابه ، وما حرب السويس سنة ١٩٥٦ م وحرب يونية سنة ١٩٦٧ م ، وحرب أكتوبر ١٩٧٣ م - ومساندة الاستعمار فيها للصهيونية - عن أذناننا بعيدة . فما المانع أن يكون هذا المقال مظهراً من مظاهر المخططات الصهيونية الاستعمارية التي يقصد بها محاربة العرب والمسلمين ، بواسطة حملات التشهير بهم ، والتشنيع عليهم ، ووصمهم بوصمة التخلف ، والهمجية والوحشية لتشويه سمعتهم

(١) كلمة (شترن) معناها في الأصل النجم ، وعصابة شترن منسوبة الى رئيسها المسمى بهذا الاسم وكان عضواً في عصابة ارغون لكنه انشق عنها وكون عصابة مستقلة باسمه كانت تحترف السطو والاختيال

على الصعيد العالمي ، وفي المجال الدولي . الأمر الذي كثيراً ما يتورط في اعتقاده عن طريق السماع : كثير من الغربيين والأوروبيين . فإذا ما درسوا ، أو بحثوا ، أو زاروا البلاد بأنفسهم فهموا أخيراً أنهم كانوا ضحايا حملات كاذبة مضللة . وقد اعترف بذلك الجاسوس الصهيوني الألماني أثناء محاكمته بعد إلقاء القبض عليه في القاهرة . وقال : إني رأيت شيئاً غير الذي سمعت .

خامساً : الكاتب غير معروف من الناحية الدينية أيضاً . هل هو من الذين ينتمون إلى دين ، أو من الذين لا دين لهم ؟ وإذا كان منتمياً إلى دين . فهل دينه المسيحية أم اليهودية ؟ أم دين آخر ؟ إن غموض شأنه من هذه الناحية : جعلنا حين نرد عليه : مدافعين أكثر من مهاجمين نعمد إلى بيان الحق ، ووضوحه في حد ذاته ، ونقرر بالأدلة والبراهين : مبادئ الإسلام وعمل المسلمين ، وواقع العرب . بمقدار ما يظهر منه بطلان دعاوى الكاتب ، ومفترياته ، وجهله .

هذا إجمال لا بد من أخذه في الاعتبار حين نأخذ تفصيلاً في مناقشة هذا الكاتب والرد عليه ، وهذا الإجمال كان لا بد منه ليأخذ القارئ فكرة إجمالية عن موضوع المقال وشخصية الكاتب ، حتى لا يتأثره الدهشة عندما يقرأ ما نستعرض من مفتريات الكاتب وغرائبه التي صاغها في أسلوب خيالي ، لعله اقتبسها وهو يمر ببلاد الشرق : من أسلوب الرواية المشهورة (ألف ليلة وليلة) .

* * *

وعنوان مقال الكاتب هو « الجنس الملعون » وكأن الكاتب عمد إلى هذا العنوان لإثارة الانتباه والتشويق ، وقد فاتته أن يشير في مقاله الطويل ، ولو إشارة عابرة إلى ما يقصده بهذا العنوان .

والذي فهمناه هو أنه يريد به : الجنس النسائي النصف الثاني لشقى الحياة الإنسانية ويريد به : أننا نحن العرب والمسلمين نطلق هذا العنوان الجائر الظالم

على المرأة وجنسها . فإنه يقول تحت هذا العنوان مباشرة « العالم الإسلامى نصف مليار من البشر ، أكثر من نصف هذا العدد ، لا زالوا يعيشون كالعبيد ، ألا وهم النساء ، إن المرأة محملة بالذنوب ، حضيضة الشأن ، نجسة ، عقلها أقل من عقل الرجل ، ولهذا تبقى طيلة حياتها تحت وصايته .

لذلك فإن الله لا يجبرها على الصلاة وزيارة المساجد : إنه يكفى أن تعبد الرجل الذى هو الصلة بينها وبين ربه ، إن دنس المرأة مُعدي ، وقابل للانتقال كوسخ الكلاب ، والخنازير ، ولا يسمح للرجل أن يلمسها ، فإذا اضطر إلى لمسها فعليه أن يتطهر ، ويغسل نفسه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وبعد نظافته من دناسة المرأة يحل له أن يصلى » ثم يقول « هذه ليست خرافات مفزعة كاذبة ، إنها أصور بخطوط عريضة طبيعة الحياة النفسية ، والأرض التى تعيش بها نساء العالم الإسلامى فيما بين مراكش والباكستان ، ومركز هذا العالم : هم العرب » ثم يقول « هذه الأفكار صيغت من علماء الكتاب المسلمين ، الذين يسمون بالعلماء ، وكما شرح آباء الكنيسة المسيحيون فى الماضى الإنجيل ، فكذلك تولى العلماء شرح القرآن ، وقد كانوا فى تشريعهم مجحفين فى حق المرأة ، مفضلين للرجل ، فجعلوا فضله ، ورفعة شأنه ، قانوناً إلهياً » انتهى : هذا كلامه بالحرف الواحد ، وتلك ادعاءاته ، وافتراءاته ، ولسنا ندرى ، ولا المنجم يدري من أى مصدر استقاها ؟ وعلى أى أساس كتبها ؟ من أى مكان ؟ من أى مرجع ؟ بأى طريق تكونت لديه هذه المعلومات ؟ .

إنه لو كان العرب والمسلمون يعيشون فى أعماق البحار ، أو فى سراديب تحت الأرض ، أو فى كهوف فى بطون الجبال . أو فيما وراء سد يأجوج ومأجوج ، لما جاز أن يكتب عنهم ما كتب ، فكيف وهم يعيشون على وجه الأرض ، ويتبأون منها أماكن مرموقة ، وبلاداً ذات حضارة ومدنية بهرت أنظار العالم جميعه ، واسترعت انتباه الناس جميعهم .

لو كان لهذا الكاتب شيء من الإلمام بتعاليم الإسلام ، ومبادئه ، وما جرى عليه العمل عند المسلمين ، على مدى التاريخ الإسلامي لعرف أن المرأة في نظر الإسلام والمسلمين ، والعرب في موضع الإعزاز ، والتقدير والإكرام ، وليست بحال من الأحوال جنساً ملعوناً ، أو نجسة كالكلاب والخنزير ، أو عابدة لزوجها من دون الله .

إن للمرأة في نظر الإسلام مكانة مرموقة فهي إما أن ينظر إليها من حيث هي أم ، أو من حيث هي زوجة ، أو من حيث هي ابنة ، أو من حيث هي أخت ، أو من حيث عدم تقيدها بحثية من هذه الحثيات ، وللمرأة في كل حالة من هذه الحالات حقوق في الإسلام ، وعنها في كل حالة من هذه الحالات دراسة وهدى وبيان . عرف ذلك وأشاد به كثير من كتاب العالم شرقه وغربه ولكن جورديان جهل ذلك أو تجاهله . .

وما ضرر الورد وما عليها إذا المزكوم لم يطعم شذاها
وقبل الشروع في هذه الدراسة نقول :

إن عظمة الشيء في حد ذاتها ، لا تكفي لأن يسالم الناس هذا الشيء ، ويعترفوا جميعاً بعظمته وكون الشيء حقاً في حد ذاته ، لا يكفي لأن يؤمن الناس جميعاً به ، ويدعنوا له . ربما تكون عظمة الشيء سبباً في حقد الناس عليه ، ومحاولتهم النيل منه ، وربما تكون جدارة الشيء وأفضليته سبباً من أسباب بغضه عند ذوى النفوس المريضة ، التي تميل بطبعها إلى الباطل ، وترى في الحق قيئاً لها عن الشهوات . كيف لا يكون ذلك ، والله تعالى يقول لحاتم رسله « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ^(١) » .

إن الإسلام ذلك الدين العظيم من يوم أن بزغ فجره والأعداء تتألب عليه ، وتأتمر ضده ، والخصوم يتناوشونه ، ولا يهادنونه ، بالسيف ، بالقلم ،

(١) يوسف ١٠٣

بالدس ، بالفتنة ، بكافة الأسلحة . من الداخل ينحرف عنه منحرفون ، ويدس فيه دساسون ، ومن الخارج يتهجم عليه متهجمون ، ويحاربه معتدون . على مدى تاريخه الطويل ، لا يكاد يمر عليه وقت إلا وهو يتعرض لهزات خطيرة أمرها كبير أثرها .

المرتدون في عهد أبي بكر الصديق ، الفتنة الكبرى بمقتل عثمان ، وما تبعها من خلافات سياسية وعقائد مذهبية بين الأمويين والعباسيين ، والعلويين ، الزنادقة والملحدون والوضاعون والمغول والتتار ، والصليبيون والعثمانيون والاستعمار ، المستشرقون والمبشرون .

لقد ألقى الكل بثقله في المعركة ، فأدى دوره العدواني حتى استهلك طاقته التخريبية ، وألقى بجميع ما في جعبته من سهام الباطل ، يريد أن ينال من الحق في جلاله ، أو يشوه من عظمته وجماله . لكن الحق ظل دائماً هو الحق ، والإسلام ظل دائماً هو الإسلام ، مرفوع الهامة ، مشدود القامة ، موفور الكرامة ، كالطود الأشم ، يتلقى الطعنات الموجهة إليه ، وهو واسع الصدر باسم الثغر ، واثقاً من أن النصر في النهاية له .

وإن كثيراً ممن بدأوه بالمهاجمة قد بهرهم ما فيه من جلال وجمال فأمنوا به وأيدوه ونصروه كالمغول والتتار وغيرهم وكثير من هؤلاء لم يرزقه الله الهداية للإيمان فأقام على عداوته ، لكنه لم يحرم حين احتك بالإسلام من الانتفاع بما فيه من هدى ونور ، اقتبسه ليسعد به في دنياه غافلاً عن سعادته في الدار الآخرة . كما كان عليه الأمر في حضارة الغرب بعد عصر النهضة فإنها في الأصل مقتبسة من حضارة الإسلام والعرب بإجماع المؤرخين .

ولم يحرم الإسلام من فضله هؤلاء ولا هؤلاء .

مثل النخيل عن الأحقاد مرتفع يُرمى بصخر ، فيلقى خير آثار
وذلك كله راجع إلى أن الطاقات الخلاقة التي فيها جدارة وفاعلية ، لا بد من

أن تشق طريقها إلى الأمام دون توقف ، ولما كان الإسلام طاقة خلاقة ، طاقة كبرى من طاقات الحق والخير وقد أنزله الله ليشق طريقه في الحياة لإسعاد البشرية في الدنيا والآخرة ، فقد احتكك بغيره ، واحتكك غيره به . وكان لابد له من أعداء وخصوم .

إن الطاقات الخلاقة ذات إيجابية ، لا تعرف السلبية ، وذات حيوية متجددة تعطى مزيداً من القدرة على النضال والمغالبة ، وهي لا تتردد على النضال والمغالبة إلا قوة وبروزاً ، في حياتها ونضالها . وسيظل الإسلام في مسيرة نضاله عزيز الجانب ، موفور الحيوية ، موصول الفاعلية ، رائداً خلاقاً ، له الغلبة والنصر « والله العزة لرسوله وللمؤمنين ^(١) » ، « وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم ^(٢) » .

ولقد هُتت مؤخرًا المدينة الغربية ، والحضارة الأوربية ، ولُثت المستشرقون والمبشرون ، وكتاب الغرب المغموسة أقلامهم في مداد الغيظ والحققد على الإسلام والمسلمين ، هُتوا وأدركهم الإعياء ، وانهار الأنفاس ، وهم يصلون ويحولون في ميدان محاربة الإسلام بالطعن والتشهير ، وقلب الحقائق ، وترتيب التاريخ . لكنهم بعد هذا النصب لم ينالوا من الإسلام شيئاً . وكان الشأن فيهم كما قال الله سبحانه وتعالى في أسلافهم « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ^(٣) » أو كما قال الشاعر الحكيم أبو تمام .

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا إشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود
وإن المقال الذي تناول في هذا الكتاب دراسته ، والرد عليه . ما هو

(١) المنافقون ٨

(٢) التوبة ٤٠

(٣) الأحزاب ٢٥

إلا صورة من صور التناول على الإسلام ، ونبي الإسلام ، وبلاد الإسلام .
مقال يدفع إليه الحقد المتأجج ، وعليه التعصب الأعمى ، والضعينة الحقيرة .
وهو في نهاية أمره ، وبعد دراسته ، والرد عليه . إلى زوال كأنه لم يكن . وصدق
الله إذ يقول « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة ، كشجرة طيبة . أصلها
ثابت ، وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله
الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من
فوق الأرض ما لها من قرار . يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة
الدنيا ، وفي الآخرة . ويضل الله الظالمين . ويفعل الله ما يشاء » (١) .

المؤلف

(١) ابراهيم ٢٤ - ٢٧

الفصل الأول

مكانة المرأة في الإسلام

« إننا لا نجد عملاً أفاد النساء ، وزفج من أقدارهن .
أعظم مما أتى به النبي محمد ، فهن مديونات له بأمر
كثيرة »

« مسيو ريفيل »

نتناول في هذا الفصل مكانة المرأة في الإسلام من جهة كونها أمماً ، أو زوجة ، أو بنتاً ، أو أختاً ، ومن جهة كونها عضواً في المجتمع الإنساني العام وينبوع الحياة فيه . .

المرأة الأم :

القرآن الكريم دستور الإسلام الخالد ، ما أوصى باحترام أحد ، وإكرامه ، كما أوصى باحترام الوالدين ، وإكرامهما : الوالد والوالدة ، الأب والأم ، لقد جعل الأمر بالإحسان إليهما تالياً في الذكر والحديث للأمر بتوحيده ، وعبادته سبحانه وتعالى فقال « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً (١) » وقال « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولاً كريماً ،

(١) النساء ٣٦

واخفض لها جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمها كما ربياني
صغيراً (١) .

نبت هذه الكلمات الإلهية عن تأفف الابن من الأم مهما كلفته بشيء ونهته
عن أن ينهرها أو يغيظها لسبب من الأسباب ، وأمرته أن يقول لها : قولاً كريماً
لطيفاً لئناً ، وأن يكون معها متذللاً ، رحيماً بها . وأن يدعو لها بالرحمة من
الله ، لأنها ربه صغيراً ، ورحمته كثيراً ، أيام أن كان في حاجة ماسة إلى
رحمتها بعد رحمة الله .

وبين لنا الله في موضع آخر فضل الأم ، وجهدها المشكور في تربية ولدها في
حملة ووضعه ورضاعه ، وسائر ما تستلزمه رسالة الأمومة المقدسة من الإخلاص
والتضحية النابعة من الأعماق عن طيب خاطر ، ورضاء نفس . فيقول تعالى
« ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً . ووضعه كرهاً ، وحملة
وفصاله ثلاثون شهراً (٢) » .

وأوجب الله إكرام الوالدين : الأب والأم حتى ولو كانا مشركين ، والولد
مسلم . فقد أساءت والدة سعد بن أبي وقاص إليه لما أسلم وهي مشركة ، فعلم
بذلك رسول الله ﷺ فأوصاه بحسن معاملتها وطاعتها إلا في الشرك والكفر .
ونزل قوله تعالى « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن ، وفصاله في
عامين ، أن أشكر لي ولوالديك إليّ المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بي
ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً ، واتبع سبيل من أناب
إليّ ثم إليّ مرجعكم . فأنبئكم بما كنتم تعملون (٣) » .

والحديث النبوي الشريف يرفع الأم على الأب في الإكرام والإحسان ثلاث

(١) الإسراء ٢٣

(٢) الأحقاف ١٥

(٣) لقان ١٤ - ١٥

درجات . فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يقول له : « يا رسول الله ، من أحق بحسن صحابتي ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : ثم من ؟ قال : ثم أموك (١) » والدرجات الثلاث كما قال علماء الإسلام : واحدة للحمل ، وواحدة للوضع ، وواحدة للرضاع . هذه هي المرأة في الإسلام إذا كانت أمماً . « لا استعباد لها ، ولا استدلال ، ولا دنس ، بل توقير ، وتقديس لها من أولادها رجالاً كانوا أو نساء . وفي المأثور المشهور عند المسلمين : أن الجنة تحت أقدام الأمهات . بمعنى أن احترامهن ، والإحسان إليهن يوصل فاعله إلى دخول الجنة يوم القيامة » .

المرأة الزوجة (٢) :

أما إذا كانت المرأة زوجة فهي لا تزوج إلا بإذنها واستشارتها ورضيها فيمن تزوج فلا تكره على الزواج بمن لا تريد الزواج منه . ففي الحديث النبوي الشريف عن أبي هريرة « حدثهم أن النبي ﷺ قال : لا تنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن . قالوا يا رسول الله : وكيف إذنها ؟ قال : أن تسكت (٣) » وقد ثبت أن امرأة جاءت إلى الرسول ﷺ تقول : إن أباه زوجها رغماً عنها بمن لا تحب . فرد نكاحها . روى البخاري « عن خنساء بنت خديم الأنصارية أن أباهاً زوجها وهي ثيب فكرهت ذلك . فأتت رسول

(١) البخاري - كتاب الأدب - باب من أحق الناس بحسن الصحبة ، طبعة الشعب بمصر
(٢) المرأة المتزوجة كثيراً ما يعبر القرآن عنها بلفظ زوج لا بلفظ زوجة في سورة البقرة والأعراف : قول الله لآدم « اسكن أنت وزوجك الجنة » وفي أول سورة النساء « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها » وفي سورة الأحزاب « وإذ تقول للذي أنعم الله عليه ، وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك » لكن علماء اللغة فيما نقلوا وحققوا : أجازوا الحاق تاء التأنيث باللفظ فقالوا « زوجة » لسهولة التفرقة بين الزوج والرجل ، والزوجة المرأة ، وجرينا على هذا في تعبيراتنا في هذا البحث
(٣) البخاري كتاب النكاح - باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها

الله ﷺ فرد نكاحه (١) .

وأوجب الإسلام على الرجل أن يدفع مهراً لمن يريد الزواج بها . فلا زواج بامرأة بدون مهر يدفع لها إعزازاً وإكراماً ، وإشعاراً بالرغبة والمحبة ، والنضحية في سبيلها . فقد قال الرسول ﷺ لرجل يريد الزواج ولا شيء معه « التمس ولو خاتماً من حديد » وهذا الرجل نفسه لما لم يجد خاتماً من حديد قال له الرسول : « ماذا معك من القرآن ؟ قال : معى سورة كذا ، وسورة كذا ، وعددها . فقال : تقرأهن عن ظهر قلبك ؟ قال : نعم . قال : اذهب . فقد ملكتها بما معك من القرآن (٢) » .

وقال تعالى « لما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن فريضة (٣) » وقال تعالى « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة (٤) » أى مهورهن عطية . ووقف عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- يخطب ذات مرة فنهى عن المغالاة فى المهور . فقالت امرأة : يا عمر . كيف تنهى عن ذلك . وقد قال الله « وآتيتم إحداهن قنطاراً ، فلا تأخذوا منه شيئاً . أتأخذونه بهتاناً ، وإثماً مبيناً (٥) » ؟

وأوجب الإسلام : إشهار الزواج ، والإشهاد عليه فقال تعالى « وأشهدوا ذوى عدل منكم (٦) » ونهى عن زواج السر . ولم يمنع من الخطبة ، والمبادئ الأولى التى هى مقدمات الزواج فقال تعالى : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ، أو أكننتم فى أنفسكم ، علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن

(١) البخارى - باب إذا زوج ابنته وهى كارهة

(٢) البخارى - باب تزويج المعسر

(٣) النساء ٢٤

(٤) النساء ٤

(٥) النساء ٢٠

(٦) الطلاق ٢٠

لا تواعدوهن سراً ، إلا أن تقولوا قولاً معروفاً (١) .

والهدف من ذلك كله هو : إعزاز المرأة ، وحسن تقديرها ، والمحافظة على الأعراض والأنساب التي لا يتكون مجتمع فاضل إلا بالمحافظة عليها ، ولم تنتزل شريعة سماوية قط إلا بالمحافظة عليها ، ولا توجد أسر نبيلة طاهرة الأعراق ، معروفة الأحساب والأنساب إلا بالمحافظة عليها .

وقد أوصى نبي الإسلام ﷺ باختيار الزوجة من البيئات الشريفة الصالحة المحافظة المؤمنة بحق الأنساب والأعراض . فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، وجلالها ، ولدينها . فاظفر بذات الدين تربت يداك (٢) » وروى عنه أنه قال « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » يحذر من فساد الذرية ، بعامل وراثته الفساد عن الأم إذا كانت فاسدة . كما يحذر من الانخداع بجمال الفاسدة في النشأة والأخلاق . فقال فيما روى عنه « إياكم وخضراء الدمن . قالوا : وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال : المرأة الحسناء في منابت السوء » يحذر من زواجها .

ومن مبادئ الإسلام : مراعاة الكفاءة بين الزوجين عند إرادة الزواج ، حتى لا تكون هناك فوارق كبيرة بين الزوجين ، فتفسد علاقة الزوجين بينهما مستقبلاً ، وهذا أمر تشهد به وقائع الحياة وتجاربها .

وإذا ما صارت المرأة زوجة بالفعل ، فقد صارت شريكة حياة زوجها ، لها عليه حقوق ، وله عليها حقوق كالشأن في جميع مظاهر الحياة وواقعها . كل حق يقابله واجب ، وبعاونتها واشتراكها تتكون زوجية ديمقراطية تعاونية فاضلة ، لا خيانة فيها ، ولا غش ، ولا غدر ، بل ثقة متبادلة ، ومحبة تزيدها الأيام قوة وترسيخاً . بدافع الحرص على مستقبل الأسرة ، الخلية الأولى من

(١) البقرة ٢٣٥

(٢) البخارى - باب الأكماء في الدين

خلايا المجتمع ، واللينة الأولى في جدار المجتمع ، فالرجل راع في أهله ، وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ، وهي مسئولة عنه . هكذا يقول نبي الإسلام ﷺ ، فالحياة بين الزوجين تكامل وتكافل . لا عبودية ، ولا استعباد ، ولا بغى ولا عدوان « كلكم راع ، وكلكم مسئول . فالإمام راع وهو مسئول ، والرجل راع على أهله وهو مسئول . والمرأة راعية على بيت زوجها ، وهي مسئولة . والعبد راع على مال سيده وهو مسئول . ألا فكلكم راع ، وكلكم مسئول (١) » .

وقد أوصى الإسلام الرجال بالنساء خيراً . فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « من كان يؤمن بالله ، واليوم الآخر . فلا يؤذ جاره ، واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن خلقن من ضلع أعوج ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج . فاستوصوا بالنساء خيراً (٢) » يريد ملاينة النساء عند إصلاحهن لأن استعمال العنف معهن قد يضر ولا ينفع « واللاتي تحافون نشوزهن فعظوهن . واهجروهن في المضاجع واضربوهن (٣) » ثلاث درجات بعضها إثر بعض فإذا انصلحت المرأة فليس للرجل عليها استعلاء « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » وأمر الله الأزواج بحسن معاشررة الزوجات فقال تعالى « وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً (٤) » وهذا أمر للزوج بإكرام الزوجة ومعاشرتها باللطف والحسنى ، حتى ولو أغضبته فكرهها . فليصبر وليحلم وليتحكم في عواطفه ، ولا يتسرع بطلاقها فر بما يكون فيها - مستقبلاً - الخير الكثير ،

(١) البخارى - باب قوا أنفسكم وأهليكم نارا

(٢) البخارى - باب الوصاة بالنساء

(٣) سورة النساء آية ٣٤

(٤) النساء ١٩

بصلاح حالها ، وحسن مآلها بإنجاب الذرية الصالحة التي تحمل اسم الرجل في حياته وبعد مماته . وصدق الله في قوله « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون (١) » .

- وإن حصل شقاق ونزاع بين الرجل والمرأة فليجتمع حكم من أهله ، وحكم من أهلها ، للنظر في النزاع والحكم بينهما ، وإجراء الصلح والوفاق . فقال تعالى « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله ، وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً (٢) » وفي مثل هذا المعنى يقول تعالى في موضع آخر « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً ، أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً ، والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحسنا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً (٣) » .

نعم إن أمكن الصلح بينهما فيها ونعمت ، وإن لم يمكن فالطلاق والفراق بإحسان واحترام كما قال تعالى « فأمسكوهن بمعروف ، أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا (٤) » وفي آية أخرى « فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف (٥) » فالإسلام يشرع الطلاق إكراماً للمرأة إذ استحال الوفاق بينها وبين زوجها ولا يتركها مستدلة له . مع اعتبار الطلاق أمراً بغيضاً يقول صلوات الله عليه « إن أبغض الحلال إلى الله : الطلاق » فالإسلام لا يفتح باب الطلاق على مصراعيه فيكون في ذلك فناء الأسر ، وتشتت العائلات والإضرار بالمرأة . وكذلك لا يمنع الطلاق منعاً باتاً ، فتحصل المعاشرة بين الزوجين على كره ومضض فيكون في ذلك الحرج والإحراج . وإذا أبى الزوج الطلاق ، وتضررت

(١) البقرة ٢١٦

(٢) النساء ٣٥

(٣) النساء ١٣٨

(٤) البقرة ٢٣١

(٥) الطلاق ٢

الزوجة بذلك فلها أن تطلب فسخ الزواج أمام القاضي . ولها أن تختلع من الزوج بالخلع المعروف . ولها في بعض المذاهب أن تشتط عند الزواج حريتها في أن تطلق إذا أرادت . فكانت لذلك تعاليم الإسلام عملية واقعية موافقة للعقل والمنطق السليم لا تحابي أحداً ، على حساب أحد .

ومن عناية الإسلام بالمرأة والمحافظة على حقوقها ، وعدم إيذاها والإضرار بها : أنه حرم على الرجل ما كان يفعله الناس قبل الإسلام من عمليتي الظهار والإيلاء ، حيث كان يقول الزوج لزوجته : أنت عليّ كظهر أمي . أو يخلف ألا يقربها ، فتصير محرمة على نفسه . فلا هو مطلق طلاقاً صريحاً ، ولا هو معاشر معاشر الأزواج فتظل المرأة كالمعلقة بين السماء والأرض . جاءت امرأة تشكو إلى رسول الله ﷺ أن زوجها ظاهر منها فأنزل الله قوله الكريم « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ، الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم . وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ، وإن الله لعفو غفور (١) » وقال تعالى في إبطال عملية الإيلاء المضرة بالزوجة « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ، فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم ، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم (٢) » وحرم الإسلام ما كان يفعله الناس بالمرأة فقد كانت تورث كالمتاع ، يرث القريب زوجة قريبه إذا مات عنها ، ويمنعها من الزواج بعده فقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة (٣) » .

أما قوله تعالى « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ،

(١) أول المجادلة

(٢) البقرة ٢٢٦ - ٢٢٧

(٣) النساء ١٩

وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ،
واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن . فإن
أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً . إن الله كان علياً كبيراً (١) » فهذا ليس إهداراً
لكرامة المرأة ، أو استعباداً لها ، أو استذلالاً . ولكن من حيث إنها والرجل
يكونان أسرة ذات كيان : زوج وزوجة ، وأولاد . وللأسرة مصالحها
ومشاكلها ، وتخطيطها وآمها وآمالها . فلا بد لهذا المظهر كله من رئيس يرجع
إليه في الأمور الهامة يؤخذ برأيه ، ويقضى على الخلافات . ويرجح أمراً على
أمر . لأنه لا يصلح أمر هو فوضى في أية ظاهرة من ظواهر الحياة كبرت أو
صغرت . فلما كان الرجل هو العنصر الأقوى في هذه الظاهرة ، وفي العادة يكون
أكبر سناً من الزوجة والأولاد ، وأكثر تجربة وإحاطة بأحوال المجتمع ، وله من
تكوينه الجسمي ، والعصبي ، ورجولته وقوة مقاومته وشكيمته ، ما يجعله
لا محالة : العنصر الأقوى . فإن الإسلام قد اعتبره هو القوام على الأسرة ،
والمسئول عنها ، الراعى لها . مع اعتبار مسئولية الزوجة أيضاً ، بل ومسئولية
الأولاد : مسئولية أساسها الحب والتعاون ، والحرص على الصالح العام للأسرة
كلها ، زوجاً وزوجة وأبناء . فللمرأة حرية ، ومسئولية في ظل من رعاية
زوجها ، وللأولاد مسئولية وحرية في ظل من رعاية الوالدين ، وللزوج حرية
ومسئولية في ظل من رعاية الوطن ، والكل في ظل من رعاية الله . وما أحسن
ما قاله الأديب المنفلوطي « تعجبنى الحرية في ثلاث : حرية المرأة في ظل
زوجها ، وحرية الرجل في ظل الوطن ، وحرية الوطن في ظل الله » .
وهذه هي الدرجة التي يقول الله فيها « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ،
ولللرجال عليهن درجة (٢) » وهذا مع مراعاة ما تختص به المرأة دون الرجل من

(١) النساء ٣٤

(٢) البقرة ٢٢٨

تعب الحيض والحمل والوضع والرضاع ، والسهر على راحة الوليد ، والقيام بمراسيم الأمومة التي هي أقدس واجبات المرأة على الإطلاق . فلو حملناها مع ذلك : قوامة الأسرة ، وراثتها لكان ظلماً لها ، إن الفوارق الطبيعية الجسمية بين الرجل والمرأة يجب الاعتراف بها وبتوابعها وآثارها وإن إنكارها لمكابرة ، وإنكار للواقع ، وإفساد لحياة المرأة والرجل على السواء ، ومسوخ وتشويه . إن المرأة بإرادتها المساواة المطلقة مع الرجل ، تريد أن تكون (رجلة) وإذا صارت المرأة (رجلة) فماذا يصير الرجل ؟ إنه لا بد من الاختلافات والتجنيس الذي هو سر الحياة .

إن هذه الدرجة ، وهذه القوامة للرجل على المرأة ليست في الإسلام فقط ، ولكنها جاءت كذلك في التوراة . « وقال - الله - للمرأة : تكثيراً أكثر أتعاب حبلك . بالوجع تلدين أولاداً . وإلى رجلك يكون إشتياقك ، وهو يسود عليك » (تكوين ٣ : ١٦) وفي الإنجيل يقول بولس في رسالته إلى أهل كورنثوس « أيتها النساء اخضعن لرجالكن كما يليق في الرب ، أيها الرجال أحبوا نساءكم ولا تكونوا قساة عليهن » (كورنثوس ٣ : ١٨ - ١٩)

وهذه الدرجة والقوامة أوصى الإسلام بحسن استعمالها كمظلة واقية للأسرة من التردى والتسيب ، وفي الوقت الذي أوصى الإسلام فيه الرجال بالنساء خيراً ، أوصى النساء بطاعة الرجال والقيام بحقوقهم وحقوق الأسرة ، وإلا فإنهن يعرضن أنفسهن لعملية إصلاح وتهذيب وترشيد بالوعظ أو الهجر في الفراش أو الضرب غير المبرح ، وفي أضيق الحدود بحيث لو أظعن الرجال ، واستقمن فليس للرجال عليهن سبيل ، غير سبيل المودة « واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع ، واضربوهن . فإن أظعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ، إن الله كان علياً كبيراً (١) » فمن النساء من يكنى في إصلاحهن ، وتقويم اعوجاجهن

(١) النساء ٣٤

مجرد الوعظ والنصيحة ، ومنهن من يكنى في إصلاحهن ، وتقويم اعوجاجهن مجرد هجرهن في الفراش ، ومن النساء من يحتجن في إصلاحهن وتقويم اعوجاجهن إلى شيء من العنف والخشونة التي تشعر المرأة بقوة للرجل وبأسه وسيطرته على مقتضى الفطرة والطبيعة التي يجب أن يحس بها ، ويرضى بها كل من الرجل والمرأة . والله دَرّ الكاتبة الإنجليزية التي تقول « إن المرأة » السوية : لا يرضيها من الرجل أن تكون مالكة أمره ، والمهيمنة عليه ، ولا تتعلق بالرجل الذي تديره كيف تشاء ، وهي تحتقر من تراه ألعوبة في يدها ، لأنها بطبعها تريد الاستناد إلى شيء صلب ومتمين .

إن التطاول إلى هدم هذه الفوارق بين المرأة والرجل مكابرة محضة ، ولعنة أعلنها بنى الإسلام حين قال « لعن الله المتشبهين بالنساء من الرجال ، والمتشبهات بالرجال من النساء » وقد ثبت في صحيح البخارى أن الرسول ﷺ نهى عن دخول بعض المتشبهين بالنساء ، مجالس النساء ، وقال للنساء ذات مرة « لا يدخل هذا عليكن » يريد متشبهاً بالنساء (١) كأنه يريد أن يقول : مهما يتشبه بالنساء فلن يكون من النساء ، وكذلك مهما تشبهت المرأة بالرجل فلن تكون من الرجال . فليبق كل على وضعه ، ولتكن الفوارق محترمة ، بل مقدسة . فلم يخلق أحد الجنسين ليكون منافسا للآخر ، أو مساويا . بل متكاملا معه ، وذلك أنفع للجنسين وللحضارة الإنسانية والوجود الإنساني .

إن نبي الإسلام ﷺ لعن الرجل يلبس لبسة المرأة ، والمرأة تلبس لبسة الرجل . وقال فيما روى عنه « أربعة لعنوا في الدنيا والآخرة وأمنت الملائكة : رجل جعله الله ذكرا فأثت نفسه ، وتشبه بالنساء . وامرأة جعلها الله أنثى فتذكرت وتشبهت بالرجال . والذي يضل الأعمى . ورجل حصور ، ولم يجعل الله حصورا ! إلا يحيى بن زكريا » وروى عنه كذلك « ثلاثة لا يدخلون الجنة ،

(١) البخارى - باب ما ينهى من دخول المتشبهين بالنساء على المرأة

الديوث ، والرجلة من النساء ، ومدمن الخمر . وقالوا : ما الديوث يا رسول الله ؟ قال : الذي لا يبالي من دخل على أهله . قالوا : فما الرجلة من النساء ؟ قال : التي تتشبه بالرجال »

وبقاء كل جنس على ما هو عليه من الأخلاق والفوارق بينه ، وبين الجنس الآخر ضروري لا نظام دقة الحياة الإنسانية ، وتباعد المدى بين هذه الفوارق أدعى لاحترام كل جنس للآخر ، واشتياقه إليه ، والتحامه به طلباً لما يفتقده هو في خاصة نفسه . أما إذا تلاشت هذه الفوارق ، وصار الجنسان شيئاً واحداً في المظهر والمخبر فقد فسدت حياة البشر واهتزت واضطربت . واضطر الجنسان للذدان انمحت بينهما الفروق أن يبحثا عن جنس آخر مضاد لهما وهيهات أن يجدها إلا بالرجوع إلى التجنيس الأول ، الفطري والطبيعي الذي جبلت عليه البشرية بيد من خلقها وأبدعها وأراد لها أن تكون كذلك « الذي أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين » (١) « صنع الله الذي أتقن كل شيء » (٢)

مشيئة الخالق الباري وصنعه

وحكمة الله فوق الشك والتهم

كيف تكون المرأة في نظر الإسلام ، وواقع المسلمين : مستعبدة تعيش عيشة العبيد والإماء ، وتعتبر نجسة كالكلاب والخنازير كما يقول « جورديان » ؟ مع أن المسلمين يسمعون في دستورهم كتاب ربه وهو يقرأ صباح مساء : أن الله جعلها رحمة ومودة ، وسكناً تسكن إليه النفس ، وأنها من آيات الله ونعمائه على الرجال يقول تعالى « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل

(١) السجدة ٧

(٢) الغل ٨٨

بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» (١) وبين تعالى أن كلا من الزوج والزوجة : لباس وستر لآخر فيقول : « هن لباس لكم ، وأنتم لبس هن » (٢) واعتبر نبي الإسلام فيما روى عنه « خير متاع الدنيا المرأة الصالحة . إن نظرت إليها سرتك ، وإن غبت عنها حفظتك في مالك وعرضك » وقال فيما روى عنه « حب (٣) إلى من دنياكم ثلاث : الطيب . والنساء . وجعلت قرة عيني في الصلاة » ورأى سائق إبل يضرب جملا يحمل نساء فيجري الجمل فيتزعجن فيقول له : « رفقا بالقوارير » يخاف عليهن كما يخاف الإنسان على زجاجات أن تنكسر . وكان يسابق زوجته عائشة في الجري فتسبقه تارة ، ويسبقها أخرى ، ويقول لها « هذه بتلك » وكانت تقف بجواره تنظر إلى الأحباش يلعبون بالنبال والسهام . ودخل أبو بكر يوم عيد عليه في بيته فوجده ﷺ نائما وعائشة زوج الرسول ، وبنت أبي بكر معها جاريتان تغنيان بغناء بعث فوكز أبو بكر ابنته عائشة يقول لها « أمزمارة الشيطان في بيت رسول الله ؟ » فلما انتبه الرسول من نومه . قال : « دعها فإن اليوم يوم عيد » وثبت أن زوجة عمر بن الخطاب راجعته في أمر من الأمور ، فغضب فقالت له « أتغضب ونساء رسول الله يراجعنه ، ولا يغضب » ؟ ونبي الإسلام يقول لعبد الله بن عمرو بن العاص « يا عبد الله . ألم أخبر أنك تصوم النهار ، وتقوم الليل ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : فلا تفعل . صم وأفطر . وقم وتم . فإن لجسدك عليك حقا . وإن لعينك عليك حقا . وإن لزوجك عليك حقا » وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت «كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ . وكان لي صواحب يلعبن معي . فكان رسول الله

(١) الروم ٢١

(٢) البقرة ١٨٧

(٣) المقصود بالحلب هنا : هو الميل الطبيعي ولا عيب فيه . بل العيب في الرهينة لأنها تخرب في البشرية . أو هو العطف والشفقة وإكرام العنصر النسائي أحد شقي الحياة . ووصايا النبي بالنساء خيرا مشهورة

صلى الله عليه وسلم إذا دخل يتقمعن منه . فيسر بهن إلى فيلعبن معي »

إن الزوجة في الإسلام ، وواقع العرب والمسلمين موضع إعزاز واحترام . على هذا جرى العمل من المسلمين والعرب في القديم والحديث ، وكل ما يخالف ذلك فهو إما جهل ، أو انحراف ، أو ندرة وشذوذ . وكل ذلك لا اعتبار به ، ولا حرمة له .

إن الزوجة لكثرة إحاطتها بالتقديس والإعزاز عند العرب والمسلمين أكثروا من الكنية عنها ، لا يذكرونها باسمها : إلا عند الضرورة القصوى ، فيكنى عنها بالأهل ، ويكنى عنها بأب الأولاد ، أو أم فلان ، أو أم فلانة ، ويكنى عنها بالحرم المصون ، وبشريكة الحياة . وما شاكل ذلك . والعرب قبل الإسلام كانوا يبدأون قصائدهم الشعرية بمخاطبة المرأة والتوجه إليها بالتوقير والتعظيم ، واستمداد النصيحة وطلب الإعانة على مكارم الأخلاق ، وماجد الأعمال ، وباسم العلة المقدسة بينها وبين زوجها ترث منه في الشريعة الإسلامية ربع تركته إذا لم يكن له أولاد . وثلثها إذا كان له أولاد . وقد يكون ثمنها هذا ، أو ربعها أكبر من نصيب رجل مشترك معها في الميراث من هذه التركة ، كما أن له باسم هذه العلة المقدسة أيضا أن يرثها إذا توفيت فله نصف التركة إذا لم يكن لها فرع وارث ، والربع إذا كان لها فرع وارث . وقد يكون نصيبه هذا أقل من امرأة وارثة معه في هذه التركة . قال تعالى « ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد . فإن كان لهن ولد فلكنم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولنهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثلثين مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين » (١) هذا بينما لا تزال المرأة في كثير من بلاد العالم ، حتى المتحضرة منها محرومة من الإرث ، والملك المستقل ، والممارسة المالية الحرة ، لقد كان « مسيو ريفيل » على الحق حين قال : « إننا

(١) النساء ١٢

لا نجد عملاً أفاد النساء ، ورفع من قدرهن ، أعظم مما أتى به النبي محمد .
فهنّ مدينات له بأمر كثيرة .

المرأة البنت :

هذا إذا كانت المرأة زوجة ، وهذه هي حقوقها ومكانتها ، فإذا كانت بنتا ، فإن الله العليم بخفايا النفوس التي خلقها ، قد ويخ الذين يحزنون نفسياً ، وتغتم نفوسهم إذا ولدت لهم بنت ، بينما يفرحون أشد الفرح إذا ولد لهم ، ولد ذكر ، وكثيراً ما يكون ذلك حتى من المرأة نفسها ، لا من الرجل وحده ، الجميع كثيراً ما يحزنون إذا بشروا بأنثى تولد ، فنهى الله تعالى عن ذلك ، وبين أنه شيء سيء وعمل غير نبيل ، وحكم غير حكيم فقال تعالى « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون ، أم يدسه في التراب الأساء ما يحكمون » (١) .

وأوجب الإسلام للبنت ما للولد من حسن الرعاية ، والتربية ، والتنشئة الصالحة ، وجميع الحقوق والواجبات ، وحذر من تفضيل الولد عليها في الهبة والمعاملة المالية ، والتصرف لصالح الولد في الموارث الشرعية التي حددها الله . وللرسول الكريم نبي الإسلام ﷺ أحاديث كثيرة يبين فيها أن من رزقه الله من البنات شيئاً ، واحدة أو اثنتين أو أكثر فآد بهن ، وأحسن تربيتهن فله الجنة . وبين في بعض هذه الأحاديث أن الرحمة بهن . والعطف عليهن يدخل الرجل الجنة فقال ﷺ « من يلي من هذه البنات شيئاً فأحسن إليهن ، كن له سترًا من النار » (٢) وفي البخاري « خرج علينا النبي ﷺ ، وأمامه بنت أبي العاص على عاتقه فصلى ، فإذا ركع وضع وفي رواية : وضعها - وإذا رفع رفعها » (٣) .

(٣) البخاري - باب رحمة الولد وتقبيلة

(١) النحل ٥٨ - ٥٩

(٢) البخاري - باب رحمة الولد وتقبيلة

المرأة الأخت :

أما إذا كانت المرأة أختا . فقد أوجب الإسلام على الأخ إكرام أخته ، ورعايتها ، وصلة رحمه فيها وأوجب لها معه الميراث عن أبيها وأمها . إذا توفيا ، أو توفي أحدهما . فيراثها على النصف من ميراث أخيها ، لأن الغرض أنه رجل سيدفع المهر إذا تزوج ، وينفق على زوجته وتكون له أسرة يكون مسئولاً عنها مالياً ، واجتماعياً ، بينما هي ستأخذ مهراً إذا تزوجت ، وتكون في كنف زوج مكلف بالإفناق عليها ورعايتها .

المرأة عامّة :

لقد حرر الإسلام المرأة ، ورد إليها كرامتها واعتبارها . لقد كانت على عهد اليونان والرومان أمة مملوكة في بيت وليها وأبيها ، ثم في بيت زوجها ، ولم يكن من حقها أن تملك شيئاً ، وكانوا يعتبرونها مخلوقاً غريباً ، لا يتمتع بالنفس الإنسانية التي يتمتع بها الرجل ، وعقدت من أجل ذلك مؤتمرات تأتمر فيها الرجال بالنساء ولا يزال بعض النساء في أوروبا لا يتمتعن بأموالهن كما يشأن إن تزوجن . بل إن العروس تدفع لخطيبها مالا كأنها تتدلل إليه ، وتغريه ، أو تدفع ثمنه وتشتريه . فأين هذا مما جاء به الإسلام من جعل المرأة مع الرجل على قدم المساواة في الحقوق والواجبات المعنوية والمالية إلا في أشياء قليلة ، يقتضيها الفرق الواضح المسلم بين طبيعة الرجل وطبيعة المرأة . فالمرأة أمام التكاليف الشرعية ، والواجبات الدينية شقيقة الرجل ، تصلى وتصوم وتركى وتحج ، وتبيع وتشتري وتخرج للحروب والدفاع عن الوطن ، وتعمل في أى عمل تشاء من زراعة أو صناعة أو تعليم أو أية وظيفة أخرى ، والله تعالى يقول في القرآن الكريم « أنى لأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض ، فالذين

هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي ، وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ، ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ثوبا من عند الله ، والله عنده حسن الثواب (١) » وفي الحديث الشريف « قال رسول الله ﷺ : ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنيه ، وآمن بمحمد ﷺ . والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران » (٢) وفي البخارى « أن رسول الله ﷺ خرج ومعه بلال فظن أنه لم يُسمع - النساء - فوعظهن وأمرهن بالصدقة فجعلت المرأة تلتقي القرط والحاتم ، وبلال يأخذ في طرف ثوبه » (٣) وقد نبغ في بلاد الإسلام والعروبة في القديم والحديث علامات فقيهاً ، وأدبيات لامعات وشاعرات مشهورات وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة كما جاء في حديث نبي الإسلام بذكر المسلمة مع المسلم وكان النساء على عهد رسول الله ﷺ يحضرن الغزوات ويقتلن الأعداء ، ويملأن الجرار بالماء ، ويداوين الجرحى ، ويقمن بحراسة المتاع والرحال ، وكانت أم أيمن تقف في غزوة أحد بجوار رسول الله ، وتنادى في الناس بالثبات والشجاعة ، وكانت أم عمارة الأنصارية في نفس هذه الغزوة قد خرجت أول النهار ، ومعها سقاء فيه ماء ، تدوربه على المسلمين المجاهدين ، تسقى منهم من يريد ، فلما انهزم المسلمون ألقت سقاءها ، واستلت سيفاً وقامت تباشر القتال ، تدافع عن رسول الله ﷺ بالسيف وترمى عنه بالقوس ، حتى أصيبت بالجراح .

وفي كتاب البخارى في أحاديث رسول الله ﷺ الصحيحة ، باب خاص بعنوان « خروج النساء مع الغزاة في سبيل الله » وفي كتاب صحيح مسلم الخاص

(١) آل عمران ١٩٥

(٢) البخارى باب تعليم الرجل أمته وأهله

(٣) البخارى باب عظة الإمام النساء وتعليمهن

بسيرة رسول الله ﷺ ، وأحاديثه باب خاص بغزوات النساء مع الرجال ، ذكر فيه أن رسول الله ﷺ كان يغزو ومعه أم سلمة زوجته ، وكانت تحمل الخنجر لتقتل به الأعداء ، وأنه خرج نساء الأنصار في الغزوات يسقين الماء ، ويداوين الجرحى ، ويأخذن من الغنيمة ، وقال عبد الله بن عمر ، رأيت أم سليم وعائشة مشمرتين ، يرى خدم سوقها تحملان جرار الماء إلى أفواه الرجال . ومكثت عائشة بعد وفاة الرسول ﷺ قريبا من الخمسين سنة تعلم الناس ، وتفتي في الفقه والحديث والتفسير ، يرجع الرجال إلى سؤالها ، والأخذ عنها في كثير من أصول الشريعة وفروعها . وخرجت ذات مرة لقتال علي بن أبي طالب في واقعة سُميت بواقعة الجمل ، نسبة إلى الجمل الذي كانت تركبه ، وهي في قلب المعركة داخل هودجها ، وهي التي قالت « نعم النساء : نساء الأنصار . لم يمنعهن الحياء أن يسألن عن أمور دينهن »

ولقد راجعت عمر بن الخطاب امرأة ، وهو يخاطب أثناء خلافته ، وعظمته ومجده ، وعارضته في رأيه فرجع إلى الصواب وهو يقول « أخطأ عمر ، وأصابت امرأة » وقالت أم سليم لرسول الله ﷺ « إن الله لا يستحي من الحق . هل على المرأة غسل إذا هي احتملت ؟ قال : نعم إذا رأت الماء » وجاء في صحاح الأحاديث ، وأحاديث الصحاح أن النساء على عهد رسول الله ﷺ قلن له : يا رسول الله غلبنا عليك الرجال - أى استأثروا بك - فأجعل لنا يوما من نفسك ، فوعدهن فلقين فوعظهن ، وأمرهن بالصدقة ، ونهاهن عن الشتم ، واللعن ، وكفران العشير - أى الزوج المعاشر - وأمرهن بالصبر عند فقدان الولد ، وأوصاهن بوصايا تعتبر دساتير خالدة ، تكفل للمرأة سعادة في بيتها . وفي المجتمع الذي تعيش فيه ، سعادة مبعثها التمتع بحسن الخلق ، وحسن السيرة والشعور بالثقة المتبادلة ، والإحساس بالعزة والكرامة ، ونظافة السلوك . وقد جاءت هذه المعاني صراحة في قوله تعالى « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات

يباعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ، ولا يسرقن ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين بهتان يفترنه بين أيديهن ، وأرجلهن ، ولا يعصينك في معروف ، فبايعهن واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم» (١)

وكان للمرأة في الهجرة من مكة إلى يثرب دور بارز ، حتى إن الله أنزل في شأن المهاجرات قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ، فامتحنوهن ، الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات ، فلا ترجعهن إلى الكفار ، لا هن حل لهم ، ولا هم يحلون لهن ، وآتوهن ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتهن أجورهن ، ولا تمسكوا بعصم الكوافر ، وأسألوا ما أنفقتم وليسئلوها ما أنفقوا . ذلكم حكم الله يحكم بينكم . والله عليم حكيم» (٢)

وجاء النساء ذات مرة إلى رسول الله ﷺ يقلن له : يا رسول الله لماذا نرى الله يذكر الرجال في القرآن كثيرا ، ولا يذكر النساء ؟ فنزل قوله تعالى : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن» (٣) وقوله تعالى « فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض» (٤) وتعززت هذه المعاني عن المساواة بين المرأة والرجل في إعطاء كل ذي حق حقه ، بمثل قوله تعالى « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى ، وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ، ولا يظلمون نقيرا» (٥) وقوله تعالى في آية أخرى « ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ، يرزقون فيها بغير

(١) الممتحنة ١٢

(٢) الممتحنة ١٠

(٣) النساء ٣٢

(٤) آل عمران ١٩٥

(٥) النساء ١٢٤

حساب» (١) وقوله تعالى « إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » (٢).

كم تجمع وتساوى هذه النصوص الكريمة ، والآيات البيّنات الحكيمة بين الرجل والمرأة ، وتلفها بحزام واحد ، هو حزام الأخوة والتكافؤ ، والمساواة أمام حساب الله وجزائه ، مما كان سببا في القولة الإسلامية المشهورة « النساء شقائق الرجال » .

لقد كان العمل ولا يزال في صلاة الجماعة بالمساجد ، أن يترتب المصلون خلف الإمام : الرجال فالصبيان ، ثم النساء . لا ترد المرأة عن بيت الله ، ولا يوصد في وجهها باب رحمة الله ، ولا تعتبر في نظر الإسلام نجسة ولا شيطانة .

نعم إن المرأة قبل الإسلام كانت مهينة متهمة بأنها رجس وشيطانة ، حتى كانت في بعض المجتمعات تدفن حية عند ميلادها ، وهي الموءودة التي قال القرآن فيها « وإذا الموءودة سئلت . بأي ذنب قتلت ؟ » (٣) وكان الفكر المسيحي يعتبرها رأس الشر والفساد والخطيئة استنادا على أن إبليس قد امتنع عليه آدم لما أراد إغواؤه بالأكل من الشجرة ، فانصرف عنه إلى حواء فاستمعت له وللحية ، فأغواها وحرضاها ، وامثلت فأكلت من الشجرة التي حرمها الله عليهما في الجنة . ولم تزل بآدم تحرضه وتغويه حتى أكل مثلها ، فانكشفت عورتها وارتكبا

(١) غافر ٤٠

(٢) الأحزاب ٣٥

(٣) التكوير ٨ ، ٩

الخطيئة ، وحواء هي السبب . في التوراة قال الله لآدم « هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها ؟ فقال آدم : المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلتُ ، فقال الرب الإله للمرأة : ما هذا الذي فعلت ؟ . . . الخ » (تكوين ٣ : ١١ - ١٣)

وعلى ذلك الزعم كان لابد من تعميم الكنيسة للمواليد على إثر ميلادهم لإزالة أثر هذا الإثم المتوارث المهلك لأرواحهم ، والذي يحول بينهم وبين ملكوت الله . يقول حبيب جرجس عميد الكلية الإكليريكية بمصر سابقا « والمعمودية ضرورة جدا للخلاص ، وبدونها لا يخلص أحد . لأن السيد المسيح قال « من آمن واعتمد خلص ، ومن لم يؤمن يُدَن » (مرقس ١٦ : ٦) وقال أيضا « إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله » (يوحنا ٣ : ٥) (١) .

هذا بينما يعتبر الفكر الإسلامي آدم وحواء على قدم المساواة أمام مسئولية الأكل من الشجرة لظاهر قوله تعالى « فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما ، وطفقا ينحصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما : ألم أنهما عن تلكما الشجرة . وأقل لكما إن الشيطان لكما عدومين ؟ قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا . وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » (٢) وإذا كان الابتعاد عن المرأة بالرهبانية يعتبر كإلّا إنسانيا في نظر المسيحية . فإنه في نظر الإسلام يعتبر نقضا وعبثا . لأنه لا رهبانية في الإسلام . ويعتبر كذلك في الأنجيل نفسه ولذلك عبر القرآن عن رهبانيتهم بأنها مبتدعة ليست من تعاليم موسى ولا عيسى إلّزاما فقال تعالى « ورهبانية ابتدعوها » (٣) يقول متى على لسان المسيح عليه السلام « قال له

(١) ص ٧٦ خلاصة الأصول الإيمانية في معتقدات الكنيسة القبطية الأرثوذكسية

(٢) الأعراف ٢٢ - ٢٣

(٣) الحديد ٢٧

تلاميذه إن كان هكذا أمر الرجل مع المرأة فلا يوافق أن يتزوج . فقال لهم : ليس الجميع يقبلون هذا الكلام . بل الذين أعطى لهم . لأنه يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم . ويوجد خصيان خصاهم الناس . ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات (١) من استطاع أن يقبل فليقبل « (متى ١٩ : ١٠ - ١٢) فأنت ترى أن الرهبانية عندهم لا إلزام عليها « من استطاع أن يقبل فليقبل »

وكثيرا ما بحث الإسلام على الزواج ، والاستمتاع بالمرأة ، والأنس إليها ، ويعتبر ذلك من آيات الله كما سبق بيانه وبيان ما فيه من المودة والرحمة ولما سمع الرسول أن أناسا يقومون الليل ويصومون الدهر ويعتزلون النساء قال أما والله أنى لأتقاكم وأخشاكم لله ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني . «

ومن عناية القرآن بالمرأة أن فيه سورة طويلة تسمى سورة النساء تحتوى على مائة وستة وسبعين آية فيها أحكام النساء ، وحقوقهن ، وواجباتهن ، وكثير مما يتعلق بهن وفي القرآن سورة الطلاق ، وتسمى سورة النساء الصغرى لأن آياتها أقل بكثير من سورة النساء الكبرى وفي القرآن سورة تسمى سورة المجادلة نزلت على إثر مجادلة امرأة لرسول الله تشكو زوجها ، الذى ظاهر منها ، ولها منه أطفال إن ضمهم إليه ضاعوا ، وإن ضمتم إليها جاعوا « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ، وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير » وهذه المرأة عاشت إلى خلافة عمر ، ونادته ذات مرة بالطريق فوقف يستمع لها ،

(١) ملكوت السموات ، أو ملكوت الله بمعنى واحد هو مجيئ نبي الإسلام بمجده وسلطانه ، والتعبير اقتبسه المسيح من سفر دانيال الإصحاح السابع الآية الثالثة عشرة وما بعدها ، ويحث أتباعه على الاجتهاد والصبر فى الدعوة اليه وتعريف الناس به .

فاستكثر الناس منه ذلك ، فقال لهم : هذه هي التي استمع الله لها من فوق سبع سمواته . أفلا يقف عمر لسمع لها ؟

وإن نعم الجنة الذي وعد الله به عباده المتقين ، لم يخل منه ذكر المرأة بجوار الرجل وذلك في القرآن ، وشريعته « وبشر الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار . كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا . قالوا : هذا الذي رزقنا من قبل ، وأتوا به متشابها . ولهم فيها أزواج مطهرة . وهم فيها خالدون » (١) واعتباره المرأة نعيما ، ونعمة وأنسا للرجل ، ليست رجسا ولا شيطانة ، لا يتنافى اقتران الرجل بها في الجنة ، مع ما هو فيه من القرب إلى الله والتمتع برضوانه . فلا المتعة بالمرأة تحول بين الرجل وبين رضوان الله ولا الرجل يحول بين المرأة وبين مرضاة الله .

المرأة ينبوع الحياة تشارك في صنعها :

لقد رأينا الله تبارك وتعالى كثيرا ما يذكر في محكم كتابه - الذي أنزله علينا هدى وبيانا - يذكر الزوجية والذكورة والأنوثة ، مينا تلازمها وتداخلها ، واندماجها ، وتفجر الحياة من نبعها معا . لا يكتمل أحدهما إلا بالآخر . ولا يتم وجوده وتفاعله في الحياة إلا به . وهذا هو منطق المساواة ، وإشعار كل عنصر باحتياجه للآخر ، وتقديره له . فقال تعالى « يأيتها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير » (٢) وقال سبحانه وتعالى « هو الذي خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به . فلما

(١) البقرة ٢٥

(٢) الحجرات ١٣

أثقلت دعوا الله ربهما . لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين « (١) وقال سبحانه
 « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها
 وبث منها رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به . والأرحام . إن الله
 كان عليكم رقيبا » (٢) ويقول سبحانه « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ،
 وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » (٣) .

نعم إنه لا رجل إلا من امرأة ، ولا امرأة إلا من رجل ، ولما أحست امرأة
 عربية إعراض زوجها عنها بسبب أنها وضعت بنتا له سمتها « الزلفاء » قالت
 بالفطرة والسليقة :

ما لأبى الزلفاء لا يأتينا بظل فى البيت الذى يلينا
 يغضب أن لا نلد البنينا وإنما نأخذ ما يعطينا

ليست شئون الخلق فى أيدينا

كما جاء أيضا قوله تعالى « لله ملك السموات والأرض ، يخلق ما يشاء ،
 يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكرا وإناثا ، ويجعل
 من يشاء عقيما إنه عليم قدير » (٤) من منذ فجر الخليقة والمرأة تشارك فى صنع
 الحياة ، والقيام بأدوارها البطولية والبناء مع الرجل جنبا إلى جنب ، والقصة فى
 القرآن تعتبر سجلا حافلا ، ببيان هذه الحقيقة ، وكشفها لأنظار الباحثين . فإن
 من الظواهر البارزة فى قصص القرآن : أن المرأة تحتل فيه حيزا كبيرا . حيث
 قامت فيه بأدوار بارزة يتكون منها هيكل القصة . وتبرز بصورة واضحة دور المرأة
 فى صنع الحياة وأحداث المجتمع . فلمريم أم عيسى مكانتها المرموقة فى القصة

(١) الأعراف ، ١٨٩

(٢) أول النساء

(٣) النحل ٧٢

(٤) الشورى ٤٩ ، ٥٠

حيث جاء قصصها بإطناب في سورة آل عمران ، ميلادها ، ونذر أمها امرأة عمران ما في بطنها لخدمة « بيت المقدس » (هيكل سليمان) كما يقول تعالى « إذا قالت امرأة عمران : رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً ، فتقبل مني إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت : رب إني وضعتها أنثى . والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وإني سميتها مريم ، وإني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنيبها نباتاً حسناً ، وكفلها زكريا . كلما دخل عليها زكريا المحراب ، وجد عندها رزقاً . قال : يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله . إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » (١) .

وميلادها عيسى مع حوارها لقومها دفاعاً عن شرفها مذكور بإطناب في سورة مريم حيث يقول تعالى « وادكر في الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ، فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا . فتمثل لها بشراً سوياً . قالت : إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً . قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً . قالت : أنى يكون لى غلام ، ولم يمسنى بشر ، ولم أك بغياً ؟ قال : كذلك . قال ربك هو على هين . ولنجعله آية للناس ورحمة منا . وكان أمراً مقضياً . فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً . فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة . قالت : ياليتنى مت قبل هذا ، وكنت نسياً منسياً . فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً ، وهزى إليك يجزع النخلة ، تساقط عليك رطباً جنياً . فكلى واشربى وقرى عينا ، فإما ترين من البشر أحداً . فقولى : إني نذرت للرحمن صوماً . فلن أكلم اليوم إنسياً فأتت به قومها تحمله . قالوا : يا مريم لقد جئت شيئا فريا . يا أخت هرون ما كان أبوك أمراً سوء . وما كانت أمك بغياً . فأشارت إليه . قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبياً ؟ قال : إني

عبد الله . آتاني الكتاب ، وجعلتني نبيا ، وجعلني مباركا أينما كنت ، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وَبِرَّ بِالْوَالِدَيْنِ ، وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . والسلام على يوم ولدت . ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا » (١) .

ولأم موسى وأخته وامرأة فرعون في ظروف ميلاده ورضاعته وإلقائه في التابوت ثم في اليم . . دورا بارزا في القصص القرآني في سورتي طه ، والقصص . وقد جاء في « طه » « إذ أوحينا إلى أمك ما يوحي ، أن اقدفيه في التابوت ، فاقدفيه في اليم ، فليلقه اليم بالساحل . يأخذه عدو لي ، وعدوله ، وألقيت عليك محبة مني ، ولتصنع على عيني . إذ تمشى أختك فتقول : هل أدلكم على من يكفله ؟ فرجعناك إلى أمك ، كي تقرر عينها ولا تحزن » (٢) وجاء في سورة القصص « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم . ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا . إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امرأة فرعون : قرّة عين لي . ولك . لا تقتلوه . عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون . وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته قصيه ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل . فقالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون ؟ فرددناه إلى أمه كي تقرر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق . ولكن أكثرهم لا يعلمون » (٣) .

ولزوج موسى وأختها دور كبير في القصص القرآني وتصنيع حياة موسى وجهاده على طريق رسالته . فقد جاء في سورة القصص عن موسى قوله تعالى

(١) مريم ١٦ - ٣٣

(٢) طه ٣٨ - ٤٠

(٣) القصص ٧ - ١٣

« ولما توجه تلقاء مدين قال : عسى رنى أن يهدينى سواء السبيل . ولما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون . ووجد من دونهم امرأتين تزودان . قال : ما خطبكما ؟ قالتا : لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ، فسقى لها ثم تولى إلى الظل فقال : رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير . فجاءته إحداهما تمشى على استحياء ، قالت : إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا . فلما جاءه وقص عليه القصص . قال : لا تخف نجوت من القوم الظالمين . قالت إحداهما : يا أبت استأجره . إن خير من استأجرت القوى الأمين . قال : إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك . وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء من الصالحين ، قال ذلك بينى ، وبينك . أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علىّ والله على ما نقول وكيل » (١) .

ولامرأة إبراهيم ذكر عريض فى قصته فى سورة هود . حيث يقول تعالى عنه « وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق . . ومن وراء إسحق يعقوب . قالت : يا وليتى ألد . وأنا عجوز . وهذا بعلى شيخا . إن هذا لشيء عجيب ؟ قالوا : أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت . إنه حميد مجيد » (٢) وفى سورة الذاريات « فراغ إني أهله فجاء بعجل سمين ، فقر به إليهم . قال : ألا تأكلون ؟ فأوجس منهم خيفة ، قالوا : لا تخف . وبشروه بغلام عليم . فأقبلت امرأته فى صرة . فصكت وجهها . وقالت : عجوز عقيم . قالوا : كذلك . قال ربك إنه هو الحكيم العليم » (٣) .

وامرأة لوط ورد ذكرها فى قصته على اعتبار أنها كانت من معوقات الدعوة

(١) القصص ٢٢ - ٢٨

(٢) هود ٧١ - ٧٣

(٣) الذاريات ٢٦ - ٣٠

وخائنة لزوجها في رسالته . فلما جاء الهلاك للكافرين قالت له الملائكة كما جاء في سورة هود « إنا أرسل ربك لن يصلوا إليك . فأسر بأهلك بقطع من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد ، إلا امرأتك إنه مصيبيها ما أصابهم . إن موعدهم الصبح . أليس الصبح بقريب ؟ » (١) وفي سورة الشعراء « فنجيناها وأهلها أجمعين إلا عجوزا في الغابرين » (٢) وفي سورة العنكبوت « إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين » (٣) وفي سورة النمل « فأنجيناه وأهلها إلا امرأته قدرناها من الغابرين » (٤) وفي سورة الحجر « إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين ، إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين » (٥) وضرب بها وبامرأة نوح المثل في قوله تعالى في سورة التحريم « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح ، وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل : ادخلا النار مع الداخلين » (٦) وفي مقابلتها ضرب مثل آخر بامرأة صالحة هي امرأة فرعون حيث يقول تعالى في سورة التحريم « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت : رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ، ونجني من فرعون وعمله ، ونجني من القوم الظالمين » (٧) وملكة سبأ تحتل حيزا كبيرا في قصة سليمان في سورة النمل لما قال له الهدد « أحطت بما لم تحط به . وجئتك من سبأ بنباً يقين . إني وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألا يسجدوا لله . الذي يخرج الخبء في السموات والأرض . ويعلم ما تخفون وما تعلنون ؟ الله لا إله إلا هورب

(٥) الحجر ٥٩ - ٦٠

(٦) التحريم ١٠

(٧) التحريم ١١

(١) هود ٨١

(٢) الشعراء ١٧٠ - ١٧١

(٣) العنكبوت ٣٣

(٤) النمل ٥٧

العرش العظيم . قال سننظر . أصدقت أم كنت من الكاذبين ؟ اذهب بكتابي هذا . فألقه إليهم ، ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ؟ قالت : يا أيها الملأ : إني ألقى إلى كتاب كريم . إنه من سليمان . وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتوني مسلمين . قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون . قالوا : نحن أولو قوة وأولو بأس شديد . والأمر إليك ، فانظري ماذا تأمرين ؟ قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها : أذلة . وكذلك يفعلون . وإني مرسله إليهم بهدية . فناظرة بم يرجع المرسلون ؟ فلما جاء سليمان . قال : أتمدونن بمال ؟ فما آتاني الله خيرا مما آتاكم . بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها . ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون قال يا أيها الملأ أياكم يأتي بعرشها . قبل أن يأتوني مسلمين ؟ قال عِزيت من الجن أنا آتيك به . قبل أن تقوم من مقامك . وإني عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . فلما رآه مستقرا عنده . قال : هذا من فضل ربي . ليلبوني أشكر أم أكفر ؟ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه . ومن كفر فإن ربي غنى كريم قال : نكروا لها عرشها . ننظر : أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون ؟ فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو . وأوتينا العلم من قبلها . وكنا مسلمين . وصددها ما كانت تعبد من دون الله . إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها : ادخلي الصرح ، فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقها . قال : إنه صرح ممرد من قوارير . قالت : رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » (١) .

وتحتل المرأة في قصة يوسف حيزا كبيرا من أول قوله تعالى « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه » إلى قوله تعالى في نفس القصة والموضوع « وقال الملك ائتوني

(١) النمل ٢٢-٤٤

به فلما جاءه الرسول . قال : ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم . قال : ما خطبكن . إذ راودتن يوسف عن نفسه . قلن : حاش لله . ما علمنا عليه من سوء . قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه . وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب . وأن الله لا يهدي كيد الخائنين « وقبل قوله « وراودته التي هوى بيتها عن نفسه » قوله تعالى عن يوسف « وقال الذي اشتراه من مصر لامراته : أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا ، أو نتخذه ولدا » (١) .

وحواء زوج آدم تحتل حيزا كبيرا من قصة آدم لأول سكناه الجنة تشترك معه في المعصية والتوبة والإخراج من الجنة ، والتنبيه عليها يا سوف ينزله الله إليهما من هدى وذكر . جاء ذلك في السور : البقرة ، والأعراف ، وطه . بعبارات مختلفة ، والمعنى واحد « واذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس أبى . قلنا : يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك ، فلا تخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ، ولا تضحى . فوسوس إليه الشيطان . قال : يا آدم . هل أدلك على شجرة الخلد ، وملك لا يبلى . فأكلا منها . فبدت لهما سوءاتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . قال اهبطا منها جميعا . بعضكم لبعض عدو . فإما يأتينكم مني هدى ، فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكري . فإن له معيشة ضنكا . ونحشره يوم القيامة أعمى » (٢) .

(١) يوسف ٢٠ - ٥٢

(٢) طه ١١٦ - ١٢٤

الإسلام يصون عرض المرأة لصالح المجتمع

لقد كان مظاهر إعزاز الإسلام والمسلمين والعرب للمرأة : أن القرآن الكريم ذمّ ولعن وهدد بالعذاب من يهاجمها ، ويتهمها في عرضها ، ويخدش حياءها ، ويسئ إلى سمعتها وكرامتها ، ويرميها بأنها زنت أو زلت . من غير دليل عنده ، ولا بيّنة ، فقال تعالى « إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات ، لعنوا في الدنيا والآخرة ، ولهم عذاب عظيم ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم ، وأرجلهم بما كانوا يعملون ، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ، ويعلمون أن الله هو الحق المبين (١) » وحكم على من يفعل ذلك أن يقام عليه عقاب وحدّ في الدنيا ، ليكون عبرة لغيره ، بأن يجلد ثمانين جلدة . فقال تعالى « والذين يرمون المحصنات ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم (٢) » أما من يعتدى على عرضها بالزنا بها فعلاً ، فله عقوبة الجلد مائة جلدة . إن لم يسبق له زواج ، والرجم حتى الموت إن كان قد سبق له زواج . وحكمها في ذلك مثل حكمه تماماً ، إن كان الزنا برضاها قال تعالى : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بها رافة في دين الله . إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابها طائفة من المؤمنين^٣ »

(١) النور ٢٣ - ٢٥

(٢) النور ٤ - ٥

(٣) النور ٢

وفي البخارى « أن رجلا من أسلم أتى رسول الله ﷺ فحدثه أنه قد زنى ، فشهد على نفسه أربع شهادات ، فأمر به رسول الله ﷺ ، فرجم ، وكان قد أحصن (١) » وهذه الجريمة لا تثبت إلا بأربعة شهداء . وذلك كله مما يوفر للمرأة حماية عرضها ، وصيانة شرفها وكرامتها ، حتى تعيش مرفوعة الرأس معزة في الوسط الذى تعيش فيه ، إذا كان من الأوساط ، التى لا يزال فيها للأعراض ، والأنساب والشرف : اعتبار أكثر من أى شئ آخر . أما الأوساط التى تحللت من الشرف والأعراض والأنساب ، وتخلت عن ذلك كله ، وانطلقت كالحيوانات تفاخر بالتهتك ، والتبذل ، والتحلل من قيود الفضيلة . فهى أحط وأدون من أن تخاطب أو تكلف بهذه القيم الرفيعة ، والمعايير المثالية . التى شهد بعظمتها وخيريتها للفرد والمجتمع ، وطالب بالعودة إليها كعلاج سريع وحاسم ، هؤلاء الذين اندفعوا فى طريق التحلل والإباحية إلى آخر مداه . فرجعوا فى نهاية الشوط يتلمسون العلاج والإصلاح فى تعاليم الإسلام التى كانوا يتطاولون عليها ويسمونها رجعية .

جاء فى كتاب « الإسلام يتحدى » لمؤلفه : وحيد الدين خان : ما يلى : -
« إن الإسلام لا ينظر إلى المرأة والرجل نظرة واحدة . فهو يحرم العلاقات الحرة بينهما وقد أخذ العلماء عند بدء العصر العلمى يسخرون من هذه القوانين ، وأطلقوا عليها ، « مخلفات العصر الجاهلى » وقالوا بشدة : إن الرجل والمرأة متساويان ، ويرانان النسل الإنسانى بطريقة متساوية ، ولسوف تكون جريمة كبرى لو أقمنا العقبات فى طريق علاقتهما الحرة . وقد أنتجت هذه الفكرة مجتمعا جديدا فى الغرب . بيد أن التجارب الطويلة المريرة التى مرت بها الإنسانية بعد هذه الإباحة الجنسية هى أقسى ما عاناه البشر فقد ثبت بعد هذه التجارب أن المرأة والرجل لا يتساويان فطريا ولا طبيعيا وأى مجتمع يقوم على أساس مساواتهما

(١) البخارى - باب رجم المحصن

سوف يسبب خرابا ودمارا عظيمين للحضارة البشرية .

(١) إن أول حقيقة في هذا الأمر : هي أن الرجل والمرأة يختلفان كل الاختلاف في نوعي كفاءتهما الطبيعية ، واعتبارهما متساويين . إنها هو مخالفة كبرى لقوانين الطبيعة في حد ذاتها . كتب الدكتور « الكسيس كيريل » الحائز على جائزة نوبل للعلم ، وهو يبين الفارق العضوي بين الرجل والمرأة - يقول : « إن الأمور التي تفرق بين الرجل والمرأة لا تتحدد الأشكال الخاصة بأعضائها الجنسية والرحم والحمل ، وهي لا تتحدد أيضا في اختلاف طرق تعليمها . بل إن هذه الفوارق هي ذات طبيعة أساسية من اختلاف نوع الأنسجة في جسم كليهما . كما أن « المرأة » تختلف عن « المرء » كليا . في المادة الكيميائية التي تفرز من مبيض الرحم داخل جسمها ، والذين ينادون بمساواة الجنس اللطيف بالرجل يجهلون هذه الفوارق الأساسية . فيدعون أنه لا بد أن يكون لها نوع واحد من التعاليم والمسئوليات والوظائف ولكن المرأة في الواقع تختلف عن الرجل كل الاختلاف فكل خلية من جسمها تحمل طابعا أنثويا . وهكذا تكون أعضاؤها المختلفة بل وأكثر من ذلك هذه هي حال نظامها العصبي .

إن قوانين وظائف الأعضاء محدودة . ومنضبطة . كقوانين الفلك . حيث لا يملك إحداث أدنى تغيير فيها مجرد الأمنيات البشرية . وعلينا أن نسلم بها كما هي دون أن نسعى إلى ما هو غير طبيعي . وعلى النساء أن يقمن بتنمية مواهبهن الفطرية . وأن يتعدن عن تقليد الرجال (١) »

ولو صدقت التجارب العملية نتائج هذه الفوارق الطبيعية . فقد فشلت المرأة في أن تحرز أية مساواة مع الرجل في أى ميدان . حتى إن الرجل يتقدم المرأة في الميادين التي كانت تعتبر حكرا على المرأة في الماضي . ومن ذلك أن المرأة فشلت في المساواة مع الرجل في حقل السينما . وليس الرجل هو الذى يدير اليوم كل ما

Man the unknown, P. 93. (١)

هو متعلق بالسينما . ومع ذلك فهو يتقاضى أجرا أكثر من المرأة فمثل كبير ، يتقاضى اليوم ستة ملايين روبية (١) في السنة . على حين لا يزيد دخل أعظم ممثلة هندية . على أربعة ملايين روبية .

وليس هذا هو كل ما في الأمر . فإننا لو أنكرنا القوانين الطبيعية ، والضوابط الفلكية وبدأنا نعمل على عكسها فسوف نكسر رؤوسنا بأيدينا ، وهكذا جلب النظام الذى صاغه الإنسان - متجاهلا الحثيات الفارقة بين الجنسين - صنوفا من الأمراض والجرائم إلى داخل المجتمع . إن شباب هذا المجتمع الجديد يشكو أنواعا من الأمراض الجنسية والحلقية ، والنفسية ، فضلا عن العصمة التى أهدرها المجتمع ، نتيجة هذا الاختلاط المروع .

ومن الظواهر التى تتكرر مرارا أمام أطباء هذا المجتمع أن تدخل فتاة غرفة الطبيب وهى تشكو من الصداع وقلة النوم . وتمضى بعض الوقت تتحدث عن هذه الآلام ؛ ثم لا تلبث أن تتكلم عن شاب التقت به صدفة منذ مدة . . .

وحينئذ يشعر الطبيب أنها تتعثر وتتلعث فى كلامها فيقول لها :

« Well, then he asked you to his Flat, what did you say ? »

حسنا : ثم دعاك إلى شقته . فماذا قلت له ؟

وتقول الفتاة فى دهشة :

« كيف عرفت ذلك ، لقد كنت أريد أن أقول لك ذلك حالا » ومن الممكن معرفة كل ما ستقول الفتاة للطبيب بعد هذا الحديث . وهذا هو الذى دفع علماء الغرب إلى الشعور بخيبة الأمل فانتهوا إلى أن الحفاظ على العفة والعصمة « كلام فارغ » فى ظل مجتمع العلاقات الحرة . وقد قال طبيب غربى : « من الممكن أن يصل الرجل والمرأة إلى نقطة ، يستحيل عندها التحكم فى الأعصاب والإحساس بالعواقب »

(١) عملة هندية كانت تساوى عشرة منها جنياً مصرباً (عند كتابة هذا الكتاب)

وقد بدأت حملة شديدة ضد هذه الظواهر في صورة المقالات والكتب وبدأ بعض علماء الغرب يشعرون بالكارثة ، التي تهدد حضارتها . ولكنهم ، رغم ذلك كله ، غير قادرين على فهم جذور الموقف . .

ولقد نشرت الطيبة المعروفة « ماريون هيلارد » مقالا عنيفا ضد الاختلاط الحرفقالت : « إنني لا أستطيع أن أسلم ، كطبيبة ، بأن العلاقات الطاهرة ممكنة بين رجل وامرأة ، ينفردان برضاها وقتا طويلا » ولكن الدكتورة « هيلارد » تستطرد قائلة :

« ولست على هذه الدرجة من الغباء ، حتى أنصح الشبان والفتيات أن يمتنعوا عن التقبيل . ولكن أكثرية الأمهات لا تحب أن أولادهن أن القبله لا تبرد العواطف ، وإنما تلهبها (١) »

وتسلم الدكتورة « هيلارد » بهذا القول ، بالقانون الإلهي الذي يحرم هذه الظواهر حتى لا يصل الإنسان إلى حافة الجرائم الجنسية القبيحة ، ولكن الطيبة لا تعرف كيف تحرم هذه الظاهرة التي تنتهي إلى الأعمال الشيطانية لا محالة ؟ (ب) لقد أباح مشرع الإسلام « تعدد الزوجات » وأثيرت ضجة كبرى ضد هذا التشريع ، وأطلق عليه - هو الآخر - أنه « تذكار العصر الجاهلي » ولكن جاءت التجارب العملية لتثبت أنه كان تشريعا مناسبا للطبيعة الإنسانية لأن سدّ باب تعدد الزوجات إنما هو فتح لعشرات الأبواب الفاجرة ، غير الشرعية . وسوف أشير هنا إلى النشرة الإحصائية التي نشرتها هيئة الأمم المتحدة في عام ١٩٥٩ م لقد أثبتت هذه النشرة بالأرقام والإحصائيات : أن العالم يواجه الآن مشكلة « الحرام أكثر من الحلال » . more out than in . في شأن المواليد . وجاء في هذه الإحصائية أن نسبة الأطفال غير الشرعيين قد ارتفعت إلى ستين في المائة . وأما في بعض البلاد ، وعلى سبيل المثال « بناما » فقد تجاوزت هذه النسبة

(١) مجلة « ريدرز دايجست » عدد ديسمبر عام ١٩٥٧

الى الخمسة والسبعين في المائة ، أى أن ثلاثة عن طريق الحرام من كل أربعة مواليد وأرفع نسبة لهؤلاء الأطفال غير الشرعيين موجودة في أمريكا اللاتينية وتثبت هذه النشرة أيضاً : أن نسبة الأطفال غير الشرعيين تصل إلى « العدم » في البلدان الإسلامية وتقول النشرة : أن نسبة هؤلاء الأطفال أقل من واحد في المائة في جمهورية مصر العربية مع أنها أكثر البلاد الإسلامية تأثراً بالحضارة الغربية .

فما الأسباب التي تحمى الدول الإسلامية من هذه البلية ؟

يقول محرر هذه النشرة الإحصائية : إن البلدان الإسلامية محفوظة من هذا الوباء لأنها تتبع نظام « تعدد الزوجات (١) »

لقد استطاع هذا القانون الإلهي الحكيم أن يحمي بلادنا الإسلامية من كارثة محققة في هذا العصر .

فقد أكدت تجارب الإنسانية أن القانون الإلهي القديم هو الذي كان مبنيًا على الحق والرحمة للإنسانية (٢) » انتهى .

ومن يقرب صحف جريدة الأهرام في ٢٥/٧/١٩٧٦ م يجد فيها عنواناً بندي له جين الشرف والفضيلة هذا نصه :

« الصحة العالمية تدرس الإجهاض بين المراهقات » أما ما تحت العنوان فهو أخرى وأفضح حيث يقول « شهدت جنيف في الأسبوع الماضي اجتماعاً هاماً تحت رعاية مصلحة الصحة العالمية لبحث ظاهرة خطيرة تهدد المجتمع والقيم ، وهي تزايد انتشار حالات الحمل والإجهاض بين الفتيات المراهقات (يا للهول) وقد أجمع عدد كبير من الأطباء وعلماء الاجتماع والنفس لبحث تلك المشكلة ، ويرى الخبراء أن السلوك الجنسي للشباب تغير نتيجة لتحسن نوعية الغذاء والرعاية الصحية . مما أدى إلى بلوغ مبكر بين الفتيات كما تغيرت مفاهيم الجنس نتيجة

(١) جريدة Hindustan Times عدد ١٢ سبتمبر سنة ١٩٦٠

(٢) الإسلام يتحدى ص ١٦٨ - ١٧١ الطبعة الثالثة بمصر سنة ١٩٧٣

تغير البيئة ، ويلقى الأطباء والعلماء والخبراء اللوم لانتشار هذه الظاهرة على الحكومات والمجتمع بأسره .

وقد وصلوا إلى هذه الحقيقة بعد التشاور مع خبراء الصحة العالمية ، وقدمت منظمة الصحة العالمية تقريرا يفيد بأن عددا كبيرا من البلاد أبلغتها بحدوث تزايد مطرد في عدد الأطفال غير الشرعيين ، وعمليات الإجهاض . وأن نسبة كبيرة من هذه الحالات تحدث بين المراهقات . وتقول الدكتور « كارمن أوستردم » إنه في بعض البلدان تمارس ٩٠٪ من الفتيات الجنس في سن المراهقة وإن رأيها الشخصي : إنه يجب تغيير موقف الحكومات لوقف هذه الزيادة الرهيبة عن طريق تدريس الجنس كمادة من مواد الدراسة طالما أن المعلومات الواقعية الصحيحة ، لن تهدر القيم

كما يجب توعية المراهقات أن الجنس يتضمن المسؤولية مما قد يخفض نسبة حالات الحمل والإجهاض كما تقول الدكتورة « رايد يلومكتس » : إن نسبة كثيرة من المراهقات يحتجن إلى ثقافة جنسية حيث إن ممارسة الجنس في سن مبكرة لم تعد وقفا على الطبقات الفقير كما كان الحال في الماضي ، ولكنها أصبحت أكثر شيوعا بين الطبقات الغنية رغم أن ٢٥٪ من المراهقات يستعملن وسائل منع الحمل . وتقع الفتيات تحت ضغط مجموعة الأصدقاء والزملاء من الفتيات والفتيان لتتجاوب مع النمط السلوكي الجديد فيما يتصل بالعلاقات الجنسية في الوقت الذي تكون فيه معلوماتهن عن نتائج تلك العلاقات محدودة . وقد انتقد الاجتماع عدم وجود تشريع يؤيده الآباء لتدريس وسائل منع الحمل في المدارس ، مع أن هذه الخدمات تقدم للسيدات الناضجات والزوجات . ولكن التقاليد والعوائد ، وحتى القانون يحول بين المراهقات واستخدام هذه الوسائل . فيجب أن تقدم هذه الخدمات للمراهقات ليستفدن من المزايا التي تقدم للزوجات »

هذا هو كلام الصحة العالمية ، ونلاحظ بكل أسف أنها تعالج المشكلة ، مشكلة دعارة المراهقات يا يزيدها ، اشتعالا فهي تقترح استعمال وسائل منع الحمل لعدم ظهور آثار هذه الإباحية والدعارة الاجتماعية العلنية بدلا من أن تعالج المشكلة من جذورها والقضاء عليها من أساسها بالفصل بين الجنسين وإبعاد الكبريت عن البنزين ، وإشاعة قيم ومبادئ العفة والطهارة والشرف والمحافظة على الأعراض ، أعنى مبادئ الإسلام الحنيف ، التي لها الفضل في حماية المجتمعات الإسلامية من هذه الظاهرة الحيوانية الخطيرة .

الفصل الثاني

دعاوى چوردیان

في ضوء هذه الإشاعات الدينية من قرآن وسنة . درج العرب والمسلمون في القديم والحديث ، فلم يعتبروا المرأة في يوم من الأيام حضيضة الشأن ، محملة بالذنوب ، نجسة كالكلب والخنزير ، كما يدعى هذا الكاتب « جورديان » . والجامعة الأزهرية التي يرميها هذا الكاتب بالجمود والتأخر ، والوقوف عقبه في سبيل تقدم المرأة تضم وهي الجامعة الدينية الإسلامية الأم - إلى كلياتها العديدة ، كلية خاصة بالمرأة تسمى كلية البنات الإسلامية . وسوف تصبح عما قريب جامعة البنات الإسلامية . . تدرس فيها الفتاة المسلمة جميع فروع المعرفة والثقافة : دينية ، ودنيوية ، نظرية ، وعملية .

وفي أكثر بلاد العروبة والإسلام : الكاتبات والأديبات ، والطبيبات والمهندسات والمحاميات والعالمات في الذرة ، والعضوات في المجالس النيابية ، والاتحادات النسائية . ووصلت المرأة إلى مقاعد الوزارة في أكثر من بلد إسلامي وعربي . ووزارة الصحة في أفغانستان تترأسها وزيرة لاوزير ، وكذلك وزارة الشؤون الاجتماعية في مصر .

لاوساطة بين المرأة وربها :

إنه لمن الجهل الفاضح المخزي أن يقول « جورديان » : إن الله لا يطلب من المرأة صلاة ، أو زيارة للمسجد . اكتفاء بأن تعبد الرجل الذي هو صلة بينها ،

وين ربهما » وينسب ذلك إلى الإسلام وتعاليمه .

والحق أنه ليس في دين الإسلام أحد يغنى عن أحد ، وليس فيه أحد يسجد لأحد ، أو يعبده من دون الله . وليس فيه صكوك غفران ، أو كراسى اعتراف ، أو غفران أب لأبنائه ، أو أن يغنى أحد عن أحد . ففي القرآن الكريم « كل نفس بما كسبت رهينة (١) » « كل امرئ بما كسب رهين (٢) » « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (٣) » وفي الأحاديث النبوية « عن عائشة أن أسامة كلم النبي ﷺ في امرأة سرت فقال : إنها أهلك من كان قبلكم . أنهم كانوا يقيمون الحد على الوضع . ويتركون الشريف . والذي نفسى بيده . لو أن فاطمة بنت محمد فعلت ذلك لقطعتم يدها (٤) » وفي البخارى أيضا عن عائشة رضى الله عنها : أن قريشا أهتمهم المرأة المخزومية التي سرقت . فقالوا : من يكلم رسول الله ﷺ ؟ ومن يجترئ عليه إلا أسامة حب رسول الله ﷺ ؟ فكلم رسول الله ﷺ . فقال : أتشفع في حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب . قال : يا أيها الناس : إنها ضل من قبلكم . أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد . وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها (٥) »

إن الاتصال بالله في دين الإسلام : هو اتصال مباشر ، لا يحتاج إلى وساطة أو شفاعة أو مساعدة يقول الله في محكم كتابه « وإذا سألك عبادى عني ، فإني قريب . أجيب دعوة الداع إذا دعان (٦) » ويقول « وقال ربكم ادعوني

(١) المدثر ٣٨

(٢) الطور ٢١

(٣) الزلزلة ٧ - ٨

(٤) البخارى - باب إقامة الحدود

(٥) البخارى - باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع الى السلطان

(٦) البقرة ١٨٦

أستجب لكم^(١) » وقال تعالى في وصف نفسه « غافر الذنب ، وقابل التوب^(٢) » وقال « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ، ويعلم ما تفعلون^(٣) » وبين القرآن أنه لا أحد في يوم القيامة يغنى عن أحد مهما كان بينها من علاقة وقرابة ، وأن الإنسان يفر من أمه وأبيه وزوجته وبنيه . فقال تعالى « يوم يفر المرء من أخيه ، وأمّه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه^(٤) » وأمر الله نبي الإسلام أن يقول لأهل الكتاب يهودا ونصارى « تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، أن لا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله^(٥) » وذمهم القرآن ووبخهم على هذا العمل فقال « اتخذوا أجبازهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا^(٦) »

وعلى ما قدمنا من النصوص المقدسة في نظر المسلمين يتبين لنا : أنه لا وساطة بين المرء وربّه والوساطة التي يتشدد بها « جورديان » منفية أصلا من الدين الإسلامى . وإنما هي لوثة لحقت بعقله وتسلمت عليه ، تأثرا بما جاء في صكوك الغفران ، التي ابتدعتها الكنيسة الغربية ، وكانت سببا في انشقاق البروتستانت عن الكاثوليك . كانت نصوصها تقول :

« ربنا يسوع المسيح يرحمك ، ويعفو عنك باستحقاقات آلامه المقدسة (وبعد) فقد وهب لى بقدرة سلطان رسله : بطرس وبؤس ، والبابا الجليل في

(١) غافر ٦٠

(٢) غافر ٣

(٣) الشورى ٢٥

(٤) عيس ٣٤ - ٣٧

(٥) آل عمران ٦٤

(٦) التوبة ٣١

(٧) نقلا عن كتاب : إظهار الحق - الشيخ رحمة الله الهندي ج ٢ ص ٣٦ طبعة مصر سنة ١٩٠٧ م

هذه النواحي : أن أغفر لك أولاً عيوبك الإكليروسية مها كانت . ثم خطاياك ،
 ونقائصك مها كانت تفوت الإحصاء . بل أيضاً : الخطايا المحفوظ حلها للبابا .
 وبقدر امتداد مفاتيح الكنيسة الرومانية : أغفر لك كل العذابات التي سوف
 تستحقها في المطهر ، وأردك إلى أسرار الكنيسة المقدسة ، وإلى اتحادها ، وإلى ما
 كنت حاصلًا عليه عند عمادك من العفة والطهارة حتى أنك متى مت تغلق في
 وجهك أبواب العذابات وتفتح لك أبواب الفردوس . وإن لم تمت الآن فهي
 باقية لك بفاعلية تامة إلى آخر ساعة موتك باسم الآب والابن والروح القدس
 آمين (١) .»

لا غسل من المرأة إلا بعد الجماع :

ولست أدري من أى المصادر استقى « جورديان » الدعاوى القائلة بأن المرأة
 في نظر العرب والمسلمين لا يجوز مس جسدها ، وإذا قدر للرجل أن يلمس
 جسدها فيجب أن يتطهر ويغتسل من رأسه إلى قدميه ، قبل أن يقف بين يدي
 الله ؟ لعله سمع عما في دين الإسلام من طهارة الغسل بعد الجماع ، فظن أن هذا
 الغسل إنما وجب لأن المرأة نجسة ، وظن أن الجماع مجرد لمس جسد لجسد
 وهكذا يكون حفظ شيئا ، وغابت عنه أشياء . ويكون كما قال القائل :
 وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم
 يا جورديان . مالك وللديانات والخوض في أسرار الشرائع المنزلة التي بينك
 وبينها حجاب .

إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع
 أنظن أنك بقضائك في بلاد العروبة والإسلام عدة شهور ترافقك « كلاوده

(١) نقل عن كتاب : إظهار الحق - الشيخ رحمه الله الهندي - ٢ ص ٣٦ طبعة مصر سنة

ديفارجيه « تحملان آلات التصوير ، تقفزان هنا وهناك ، تكون بذلك قد فهمت حقائق الإسلام وأسراره ؟ أم تظن أنك لا تكون رحالة ، أو بحاثة ، أو مراسلا لمجلة إلا إذا رحلت تستلفت أنظار الناس ، وانتباههم ، يا تذكر من الغرائب المخترعة الملقفة في أسلوب لعلك أقتبسته وأنت في رحلتك في بلاد الشرق من أساليب الرواية الشرقية المشهورة « ألف ليلة وليلة »

إعلم يا جورديان إن عملية الغسل هذه طهارة ونظافة ، وإزالة حدث وظلمة اعتبارية قامت بالأعضاء . وهى فى الوقت نفسه تجديد للنشاط بعد الفتور الذى حصل للجسد بعد الجهد الذى بذله فى عملية الجماع . وهذا مما شهد بعظمته وجدارته علماء الطب من غير المسلمين ، بله المسلمين .

والغسل بعد الجماع واجب على المرأة كالرجل لا يقف أحد منهما بين يدي الله للصلاة إلا إذا تطهر . فهل نقول : على حسب فهمك - إن المرأة تغتسل لأن الرجل نجس كالكلب والخنزير ؟ أم نقول : إن للنظافة والطهارة فى دين الإسلام عرفا عريفا ، وفى الوقت الذى كانت فيه تعاليم الإسلام تعمل عملها فى نظافة المسلمين فى مسكنهم وملبسهم ومأكلهم ، وشوارعهم ، ومرافق حياتهم . كان أهل أوروبا يعبدون الله ، ويتقربون إليه بالوساخة والقذارة ، والابتعاد عن رش أجسادهم بالماء ، فتنبعث الروائح الكريهة من أجسادهم وبيوتهم ، وشوارعهم آناء الليل وأطراف النهار .

اقرأ التاريخ يا جورديان ! !

إن أوروبا يا فيها من علم وحضارة وتقدم مدينة للعرب وللمسلمين . فعن العرب والمسلمين اقتبست أوروبا حضارتها ، وتقدمت وأسرعت فى عدوها إلى الأمام فسبقت ، وقد تسبق « العرجاء » وصارت مع العرب والمسلمين كالتلميذ

الذى ينسى فضل أستاذه ، ويمعن فى الاستهزاء به ، والنكايه له . التلميذ الذى قال فيه أستاذه :

أعلمه الرواية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى
وكم علمته نظم القوافى فلما قال قافية هجاني

يقول روبر تسون المؤرخ الإنجليزى « فى الزمن الذى كان فيه العرب يتدارسون العلوم المختلفة ، وينشرونها فى بلادهم كان أهل أوروبا فى جهل مطبق ، ونوم عميق ، ولم يستفيقوا منه إلا بعد الحروب الصليبية ، فإنهم وجدوا حين اختلاطهم بالمسلمين علوما لا يعرفونها وبلاداً متمدنة ذات نظم محكمة ، فاقبستوا منها ، وصاروا يدخلونها فى بلادهم »

ولم يكن الإسلام هو الدين الوحيد الذى أمر أن يتطهر الرجل ، وأن تطهر المرأة من الجنابة بل إن التوراة تنص على ذلك وأشق منه وأصعب ، وإن جورديان المزم بأحكام التوراة إن كان نصرانيا لقول عيسى عليه السلام فيما رواه « متى » « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس » [متى ٥ : ١٧] فى التوراة (١) « وإذا حدث من رجل اضطجاع زرع يرحض كل جسده بءاء ، ويكون نجسا إلى المساء ، وكل ثوب وكل جلد يكون عليه اضطجاع زرع يغسل بءاء ، ويكون نجسا إلى المساء والمرأة التى يضطجع معها رجل اضطجاع زرع يستحان بءاء ، ويكونان نجسين إلى المساء » [لاوين ١٥ : ١٦ - ١٨] يا جورديان .

نحن الذين قال شاعرهم :

إن النساء رياحين خلقن لنا وكلنا يشتهى شم الرياحين
فكيف تكون المرأة فى نظرنا نجسة كالكلب والخنزير؟!

(١) نقل النصوص من التوراة العبرية ترجمة الروتسنتات سنة ١٩٧٠ بمصر والأنجيل من الترجمة

المرأة المسلمة والمرأة الغربية :

إن المرأة المسلمة والعربية سبقت المرأة الأوروبية الغربية إلى معرفة حقوقها ، ورفعة شأنها وتقديرها واحترامها ، ببضع مئات من السنين ، لكن لم يقدر للمرأة الأوروبية والغربية أن تسبق المرأة العربية والمسلمة في الحصول على حقوقها السياسية إلا بزمن يناهز النصف قرن ، ليس إلا . مع مراعاة أن ما عسى أن يكون في البيئة العربية والإسلامية من تأخر أو جمود بعض الشيء في بعض فترات من القرن التاسع عشر ، والقرن العشرين . فإنها الفضل في ذلك راجع أولا وبالذات إلى أن هذه الفترات كانت فترات ظلام من الغرب ، واستعمار وافد كالحميات الوافدة جثم على صدر البلاد العربية والإسلامية يكتم أنفاسها ، ويمتص دماءها ، ويسلبها الحياة سلبا ويعمل على تأخرها ، وشل فاعليتها ، لتبقى تحت سيطرته ، واستعماره مكسورة الجناح لا ترفع رأسا ، ولا تطلب استقلالاً .

إن أمامي الآن إحصائية وبيان عن حصول المرأة على حقوقها السياسية . تقول : إنه بدأ في سنة ١٩١٠ بقيام ثورة نسائية من عاملات نيويورك قتل فيها ٢٥٠ عاملا ، ثم تأكد حق الانتخاب للمرأة الأمريكية في سنة ١٩٢٠ ثم كانت كندا في سنة ١٩١٦ وقبل ذلك نالت المرأة في نيوزلندا حق الانتخاب .

وما زال الأمر يتسع في كثير من البلاد حتى كانت سنة ١٩٤٦ عقب الحرب الثانية فكثرت الدول التي حصلت فيها المرأة على حقوقها السياسية في جميع أنحاء العالم حتى بلغت الآن حوالي ١٠٦ دولة . وفي سنة ١٩٥٦ حصلت المرأة في جمهورية مصر العربية على حقوقها السياسية كاملة . وفي سائر قارات آسيا وأفريقية وأمريكا اللاتينية . هذه البلاد التي سادها الظلم الاستعماري والإقطاعي ، وبدأت المرأة تتقدم لتأخذ مكانها في الكفاح إلى جانب الرجل ضد الظلم والرجعية والتخلف ، وشهدت سنوات ما بعد الحرب الثانية مؤتمرات عديدة لنساء تلك القارات ، وقالت مسز أشبي رئيسة الإتحاد النسائي العاني سابقا « إن

وضع المرأة تغير تماما ، في معظم بلاد العالم ، بدليل أن الرئيسة الحالية للاتحاد النسائي العالمى من سيلان ، وهذا دليل على التقدم الذى أحرزته المرأة الآسيوية « على أنه قد تحصل المرأة فى بعض البلاد على حقوقها السياسية الانتخابية وهى أقل ثقافة وحضارة ووعيا من امرأة مثقفة واعية ، لم تحصل على حقوقها السياسية والانتخابية وفى شمال سويسرا ، البلاد الراقية لم تحصل المرأة على حقوقها السياسية بعد ، وهى أرقى من المرأة فى بلاد أخرى ، حصلت على حقوقها السياسية ، كما أفضت بذلك زوجة السفير السويسرى بالقاهرة (١).

تعدد الزوجات والجواري وعفة الزوجة

تعدد الزوجات والجواري وعفة الزوجة

يقول جورديان : في أسلوب التأسف واللوم والتشيع على العرب والمسلمين « كل رجل يستطيع أن يتزوج أربعة ، وأن يمتلك ما شاء من الجواري » ونحن نبادر إلى الأخذ في علاج تأسفه ، ولومه وتشيعه ، فنقول له : إن الأمر ليس على إطلاقه كما يفهم وإن لإباحة تعدد الزوجات في الإسلام أسبابا وظروفا . فقد جاء الإسلام وتعدد الزوجات بلا قيد ولا شرط يفشو أمره بين الناس ، فلم يشأ أن يمنعه منعا باتا فيكون الحرج والعنت والتضييق الفجائي . ولم يشأ كذلك أن يتركه على حالة من الفوضى والهمجية بل توسط في الأمر فأباحه الى أربعة فقط بشرط القدرة على العدل بين الزوجات ، والاعتدال على القيام بواجبهن جميعا على سواء . من الوجهات المالية الصحيحة والاجتماعية ، وعدم إضرار الرجل بنفسه وزوجاته وأبنائه . فإن خاف شيئا من ذلك ، وأحس من نفسه عدم القدرة على العدل والنهوض بهذه الأعباء ، فيحرم عليه أنه يتزوج بأكثر من واحدة .

قال تعالى « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم^(١) » ثم إن التشريع الإسلامي قال عن هذا العدل « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل ، فتذروها كالمعلقة ، وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان عفورا رحما^(٢) » وبضميمة

(٢) النساء ١٢٩

(١) النساء ٣

هذا إلى الذى قبله يتبين لنا : أنه لا تعدد للزوجات إلا اذا استطعنا العدل بين النساء ، ولن نستطيع العدل الكامل بين النساء ، ولو حرصنا على ذلك ، فتكون النتيجة تحيبا وترغيبا فى إغلاق باب التعدد .

إلا أنه مع ذلك قد توجد ظروف لا يسع أى عاقل ، أو منصف إلا أن يبيح تعدد الزوجات فيها تمشيا مع يسر الإسلام وواقعيتها ، إذا تزوج الإنسان بامرأة فكانت عقيا لا تلد . لماذا يحرم من الأبناء والذرية وهما من زينة الحياة الدنيا ؟ هل الأكرم لها أن تبقى فى عش الزوجية ، وكنف الرجل وإن تزوج غيرها معها ، أم الأكرم لها أن تطلق وتنبذ نبذ النواة ؟ إذا مرضت الزوجة مرضا عضالا ميثوسا من شفائها . لماذا لا يتزوج الرجل بأخرى ؟ أ يطلقها مريضة ميثوسا من شفائها عالة على الناس . أم يقع فى الحرام والزنا بغيرها ؟ أم يتعجل نهاية حياتها فيقتلها فيتخلص منها ، ويتسنى له أن يتزوج بغيرها كما يفعل ذلك بعض الذين لا طلاق ، ولا تعدد عندهم ؟ إذا قرر الأطباء الثقة أنه لا يجوز لهذه الزوجة أن تحمل أو تلد والا عرضت حياتها للخطر .

ماذا يفعل الزوج إذا لم يبيح له أن يتزوج بغيرها ؟ إذا زاد عدد النساء على عدد الرجال بكميات كبيرة ، لاسيما فى أعقاب الحروب التى وقودها الرجال . فلماذا لا يفتح الباب لتعدد الزوجات ولا تترك هذه الكميات الهائلة من النساء يتضورن جوعا ، ويبعن الهوى الآثم ، ويعشن فى الأرض فسادا ، حتى يجهنز على البقية الباقية من الرجال والشباب ؟ لماذا تأخذنا الشفقة على المرأة المتزوجة فنُدافع عنها لتظل هى منفردة بالزوج ، ولا تأخذنا الشفقة بالنساء الأخريات اللاتى ينهشن الضياع ويكويهن الحرمان ؟ أليس الجميع كلهن نساء . بنات حواء ؟ فلماذا العطف على البعض دون البعض ؟ إن هذه تفرقة بلا سبب ولا موجب وقد أحس بهذا الإحساس كثير من غير المسلمين ، وأشادوا به وطالبوا بفتح باب تعدد الزوجات . إننى أضع هنا تحت أنظار جورديان وأمثاله

كلمات حكيمة عادلة لكاتبة انجليزية قالت ما ترجمته « لقد كثرت الشاردات من بناتنا ، وعم البلاء ، وقل الباحثون عن أسباب ذلك . وإذا كنت امرأة ترانى انظر إلى هاتيك البنات ، وقلبي يتقطع شفقة عليهن وحزنا ، وماذا عسى أن يفيدهن بثي ، وحزنى ، ووجعى وتفجعى ، وإن شاركنى فيه الناس جميعا . ؟ ؟ »

لا فائدة إلا فى العمل بما يمنع هذه الحالة الرجسة . والله در العالم الفاضل « تومس » فإنه رأى الداء ، ووصف له الدواء . الكافى للشفاء ، وهو إباحة التزوج بأكثر من واحدة وبهذه الوسطة يزول البلاء لا محالة ، وتصبح بناتنا ربات بيوت . فالبلاء كل البلاء فى إجبار الرجل الأوربى على الإكتفاء بامرأة واحدة . فهذا التحديد هو الذى جعل بناتنا شوارد وقذف بهن إلى التماس أعمال الرجال . ولا بد من تفاقم الشر إذا لم يبيح للرجل التزوج ، بأكثر من واحدة »

ويقول الشيخ محمود شلتوت طيب الله ثراه « عرف الزواج فى طبيعة البشر الأولى ، وعرف كذلك تعدد الزوجات فى الحقب الماضية ، وكان له فى كثير من الشرائع السماوية وجود واسع وامتداد الى عدد كثير ، كما يحدثنا التاريخ عن إبراهيم ويعقوب وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ، وكما يحدثنا عن العرب وغيرهم من أكثر بلاد المعمورة حتى عند أهل أوربا ، فقد كان مباحا عندهم الى عهد شرلمان الذى كان متزوجا بأكثر من واحدة ، ثم أشار القساوسة فى ذلك الوقت على المتزوجين بأكثر من واحدة ، أن يختاروا لهم واحدة ، من بينهن يطلق عليها زوجة ، ويطلق على غيرها اسم « خدن » ومن هنا أخذ التعدد فى أوربا لونا بغيضا يقزز النفس ، ويحرج الصدر ، وينزل بالخلق . وهكذا ظل التعدد محذورا عندهم بالارتباط الشريف ، مباحا بالمخادنة » انتهى

والتوراة التى يؤمن بها اليهود والنصارى معاً تبيح التعدد للزوجات وللإماء بدون عدد محدد فى التوراة عن سليمان عليه السلام هذا النص « وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون مؤايبات ، وعموئيات ، وأدوميات ،

وصيدونيات ، وحِثيات من الأمم . . . فالتصق سليمان بهؤلاء بالحبة ، وكانت له سبع مائة من النساء السيدات ، وثلاث مائة من السرارى فأمالت نساؤه قلبه « [الملوك الأول ١١ : ١-٣]

هذه هى مسألة الزواج بأكثر من واحدة . أما مسألة أن يمتلك الرجل ما شاء من الجوارى فتلك ظاهرة كانت من ذبول ظاهرة الرق فى العالم كله ، ولم يبق من هذه ، ولا من تلك إلا بقايا قليلة جداً لا تكاد تذكر ، وعند بعض أفراد لا تكاد تعد على الأصابع اليد الواحدة فى العالم الإسلامى كله . فقد كان الرق فاشياً فى العالم كله قبل الإسلام بصورة واسعة النطاق ، وبأسباب لا تكاد تنضب ، ولا تدخل تحت حصر ، « المصربون والفرس والرومان ، واليونان والهنود ، والصينيون والعرب » .

ولم يكن للرقيق أية حقوق عند سادتهم .
وقد أمرت التوراة بالرق ، والإنجيل أيضاً لأن المسيح مصدق للتوراة . فى التوراة « حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ، ويستعبد لك . وإن لم تسالمك ، بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إهلك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة ، كل غنيمتها فتغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب أهلك » .

[التثنية ٢٠ : ١٠ - ١٤] .

هذا بالنسبة إلى الأمة من غير بنى إسرائيل . أما بالنسبة إلى الأمة من بنى إسرائيل فقد جعلت التوراة لها حقاً مثل حق العبد تقول التوراة « إذا بيع لك أخوك العبرانى ، أو أختك العبرانية ، وخدمك ست سنين ، فى السنة السابعة تطلقه حراً من عندك ، وحين تطلقه حراً من عندك ، لا تطلقه فارغاً ، تزوده

من غنمك ، ومن بيدرك ، ومن مفصرتك ، كما باركك الرب إهلك تعطيه ،
واذكر أنك كنت عبداً في أرض مصر ، ففداك الرب إهلك . لذلك أنا أوصيك
بهذا الأمر اليوم ولكن إذا قال لك : لا أخرج من عندك لأنه قد أحبك .
وبيتك إذ كان له خير ، عندك . فخذ الخرز ، واجعله في أذنه ، وفي الباب
فيكون لك عبداً مؤبداً . وهكذا تفعل لأمتك أيضاً»

[التثنية ١٥ : ١٢ : ١٦] ويقول بولس في رسالته لأهل أفسس «أيها العبيد
أطيعوا سادتكم حسب الجسد ، بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح ،
لا بخدمة العين كمن يرضى للناس ، بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من
القلب ، خادمين بنية صالحة ، كما للرب ليس للناس ، عاملين أن مهما عمل
كل واحد من الخير ، فذلك يناله من الرب عبداً كان أم حراً ، وأنتم أيها
السادة : افعلوا لهم هذه الأمور تاركين التهديد عاملين أن سيدكم أنتم أيضاً في
السموات ، وليس عنده محاباة» . [أفسس ٦ : ٥-٩] .

ولما ظهر الإسلام قصر الرق على حالة واحدة ، هي التي تكون في أعقاب
الحرب ، ووقوع أسرى الأعداء من الرجال والنساء في أيدي المسلمين المجاهدين
في سبيل الله ، المدافعين عن دينهم وحياتهم ووجودهم ، ولهم أن يمنوا على
الأسرى بالعضو ، ولهم أن يقبلوا منهم الفداء ، ويخلو سبيلهم ، ولهم أن يضربوا
الرق عليهم يقول تعالى : «فإذا لقيتم الذين كفروا ، فضرب الرقاب حتى إذا
أثنتموهم ، فشدوا الوثاق . فإما منا بعد ، وإما فداءً ، حتى تضع الحرب
أوزارها»^(١)

ولقد أباح الإسلام للمالك : أن يعاشر التي ملكها عن هذا الطريق ، معاشره
الزوجات ويكون ذلك سبيلاً إلى عتقها وحريتها في المستقبل ، فلا نجاسة في

(١) محمد ٤

الإسلام ، ولا استرقاق للحر في الإسلام ولا اعتداء على أحد بضرب الرق عليه ظلما وعدوانا .

وقد كان من الرقيق رجالا ونساء من يعتنق الإسلام ، وينبغ فيه أكثر من سادته ، وكانت صفة إحدى زوجات الرسول ﷺ من سبايا اليهود ، أعتقها ﷺ وتزوجها .

وكانت مارية القبطية مملوكة أهداها المقوقس عظيم مصر ، إلى رسول الله فأعتقها وتزوجها ، وكانت هاجر أم اسماعيل عليه السلام مملوكة أخدمها ملك مصر سارة زوجة إبراهيم ، فزوجتها لإبراهيم ، فولدت له إسماعيل أبا العرب . هذا مع ترغيب الإسلام في عتق الرقيق وإكرامه ، ومعاملته بالحسنى ، واحترام آدميته في آيات كثيرة جداً من كتاب الله . وأحاديث كثيرة جداً من كلام رسول الله .

نعم إنه من مبادئ الإسلام المشهورة أنه يدعو كثيرا إلى عتق الرقبة ، وإطلاق حرية المملوك ، ويجعل على ذلك ثوابا كثيرا . وعتق الرقاب أيضا يغفر كثيرا من الذنوب والآثام كما في كفارة القتل ، وكفارة اليمين ، وكفارة الظهر ، قال تعالى في الحث على عتق الرقاب «فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ؟ فك رقبة . أو إطعام في يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة (١) » والمراد : تحريض الإنسان على فعل ذلك العمل الجليل . وقال تعالى في كفارة الظهر ، الذي يحرم الرجل فيه على نفسه امرأته كحرمة أمه ، ثم يريد أن يرجع في هذه التحريم «والذين يظاهرون من نسائهم ، ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتاسا . ذلكم توعظون به . والله بما تعملون خبير (٢) » ويقول في كفارة اليمين «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم . ولكن يؤاخذكم بما

(١) البلد ١١ - ١٦

(٢) المحادلة ٣

عقدتم الإيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة (١) » ويقول في كفارة القتل « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ، ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا (٢) » وقد كانت آخر كلمات الرسول الكريم وهو في فراش مرض موته ، وصيته المشهورة في إكرام الرقيق التي رفع فيها يده وهو يقول « الصلاة ، الصلاة ، وما ملكت أيمانكم » ووصيته بالرقيق بجانب الصلاة التي هي أول أركان الإسلام يدل على أهمية الوصية وعظيم الثواب فيها .
 فما أعظم حقوق الرقيق في الإسلام إذا قورنت بحقوق الرقيق في بلاد الاستعمار ونظامه . الذي كان يقوم على خطف الآدميين من المستعمرات ، وشحنهم في البواخر كالحیوانات وتصديرهم إلى حيث يريد الاستعمار من قارة إلى قارة ، بلا شفقة ولا رحمة ، ولا أدنى احترام للآدمية .

وقد أوجب الإسلام الإحسان إلى المملوكين وجعله كالإحسان إلى الوالدين وذوى القربى . فقال تعالى « واعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، وبذی القربى والیتامى والمساكين والجار ذی القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبیل ، وما ملکت أیمانکم . إن الله لا یحب من كان مختالاً فخوراً (٣) » وفي صحيح البخارى كتاب مستقل سماه « فى العتق وفضله » ذكر فيه كثيراً من الأحاديث التي تحب في عتق الرقبة كمثل قوله ﷺ « أيما رجل أعتق أمراً مسلماً استنفذ الله بكل عضو منه ، عضواً منه من النار » وجاء فيه أن النبي ﷺ يأمر عند كسوف الشمس بعتق الرقاب قربى إلى الله « عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها قالت : أمر النبي ﷺ بالعتاق فى كسوف

(١) المائدة ٨٩

(٢) النساء ٩٢

(٣) النساء ٣٦

الشمس» وجاء فيه قوله ﷺ «من كانت له جارية فعالها فأحسن إليها ، ثم أعتقها وتزوجها كان له أجران» وقوله ﷺ عن العبيد «إن إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم . فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم» وقوله ﷺ «لا يقل أحدكم : عبدى وأمتى ، وليقل : فتاى ، وفتاى وغلामى» ومدح رسول الله ﷺ العبد الأمين «والعبد راع على مال سيده ، وهو مسئول عنه» وسب أبو ذر الغفارى عبدا مملوكا وعيَّره بأمه فقال الرسول ﷺ «أعيرته بأمه؟» وفى رواية قال الرسول «إنك امرؤ فيك جاهلية» .

لقد بزغ فجر الإسلام والرق يسود العالم ، ويتفشى فيه ، وكانت له أسباب كثيرة جدا منها أن من يستدين ، ولا يقدر على الرد يكون لصاحب المال الحق فى أن يأخذه عبدا مملوكا . فما أحكم الإسلام حيث أقر الرق وجعل له سببا واحدا هو الأسر فى الحروب إذا أراد الغالب . مع جواز المنّ من الغالب أو أخذ الفدية ، ثم فتح للعتق أبوابا كثيرة متعددة ومتنوعة . مثل ذلك - مثل الحوض من الماء إذا نزل فيه ماء أكثر مما ينزل منه امتلاءً وفاض . وإذا ما نزل فيه أقل مما يخرج منه فرغ الحوض من الماء . فحالة الامتلاء هى حالة الرق قبل الإسلام . وحالة الفراغ هى حالته بعد الإسلام . فما أعظم الإسلام ، وما أحكمه . أن الأسير الذى هو أصل الرقيق لم ينس القرآن أن يشير إلى إكرامه ، فقال تعالى فى وصف الأبرار «ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ، ويتيما ، وأسيرا . إنا نطعمكم لوجه الله ، لا نريد منكم جزاء ولا شكورا» (١) .

إن ضحايا الرق على الطريقة الاستعمارية والغربية والحديثة قد لجأوا إلى الإسلام أخيرا ، يجعلونه طوق النجاة مما هم فيه من ذل واستعباد . فالإسلام إذا ليس الدين الذى ابتدع الرق وشرعه بصورة فيها إجحاف بحق الرقيق ، ولكنه

الدين الذى يجارب الرقيق فى أبشع صوره ، وأقبح أشكاله لأنه دين الحرية والإخاء والمساواة ، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، وكلكم لآدم ، وآدم من تراب .

وقد جاء فى مجلة الثقافة عدد يوليو ١٩٧٦ م مقال بعنوان « الحركة الإسلامية فى الولايات المتحدة الأمريكية » يقول فيه كاتبه « وعرف الإسلام طريقه إلى قلوب الملونين السود «زواج أمريكا» فى ظروف اجتماعية صعبة ، فكان طوق النجاة الذى تعلقوا به ليحملهم إلى بر الأمان فى هذا الخضم العاقى الذى استلهم ، وامتن آدميتهم ، واهتمم حقوقهم الإنسانية . ومن المعروف أن زواج أمريكا ، هؤلاء ينتمون بأصولهم العرقية إلى إفريقيا . فعندما اكتشف الرجل الأبيض شواطئ إفريقيا الغربية لم تكن القارة السوداء قد تكشفت عن كنوزها . فلم يجد البيض أمامهم من النهائب غير الإفريقيين أنفسهم ، وأسروهم بضاعة ، وجدت سوقاً نافقة عندما اتسعت وراجت تجارة الرقيق بعد اكتشاف أمريكا ، وكانت عالماً مجهولاً مغلقاً على سكانه الأصلاء الذين سموهم «الهنود الحمر» . لقد استجاب لنداء القارة العذراء الكثيرون من سكان العالم القديم . نزحوا إليها مهاجرين فرارا من الفقر ، ومن الإضطهادات المذهبية والسياسية ، أو طمعا فى خيرات العالم الجديد باستثناء الملونين السود . فهؤلاء لم يهاجروا إلى أمريكا ، وإنما جلبهم تجار الرقيق ليكونوا عبيد الأرض فى الدنيا الجديدة . وبخاصة فى المزارع الجنوبية التى لا يتحمل حرارتها الرجل الأبيض .

ويتفق الهنود الحمر ، والملونون السود فى أن كلا منهما أقلية تعاني الإضطهاد والتفرقة ، ولكنها بعد ذلك يختلفان . فالهنود الحمر ، أمريكيون أقحاح لم يجتلبوا إليها من الخارج ، ثم هم قلة معزولة . خلافا للسود الذين يمثلون كثرة نسبية ، ويشكلون قوة عاملة لها ثقلها ، وعليها أن تعمل ، وليس لها حقوق . فهم عبيد منبوذون مجردون من حقوق الإنسان حتى بعد أن صدرت التشريعات التى تحرم

التفرقة العنصرية في أمريكا ، فقد استمرت هذه الأوضاع المحقفة بصورة أو بأخرى ، ومازالت الولايات الأمريكية الجنوبية * على الرغم من هذه التشريعات - تعامل السود معاملة لا تتفق مع روح العصر ، ولا تليق بكرامة الإنسان ، فهم يمنعونهم من دخول مطاعم البيض ، ومن غشيان دور السينما والملاهي التي يغشاها البيض ، وكذلك الأمر بالنسبة لدور التعليم وغيرها . وفي أوائل الأعوام الدراسية كانت تقوم الدنيا وتقعد لأن جامعات بعض الولايات الجنوبية ترفض قبول الطلبة السود ليتعلموا فيها كما يتعلم إخوانهم البيض ، ويثور الملونون وهم كتلة بشرية يعتد بها في هذه الولايات . وتصر الجامعات على رفض قبول أوراق الطلبة الزنوج ويتمسك هؤلاء بحقهم في العلم . ويتعصب ضدهم حكام هذه الولايات ، تساندهم القوات المحلية ، والعنصريون من البيض ، وتندلع الحركات العنيفة والمظاهرات الصاخبة ، ويصل الأمر إلى القضاء وتقضى المحاكم بقبول الطلبة السود في الجامعات ، ويرفض رؤساء الجامعات تنفيذ أحكام القضاء ، وتوسع المسألة ، وتتعقد ، وتدخل القوات الفيدرالية ، ولا يغرنك ما تراه في الولايات الشمالية من بعض مظاهر المساواة التي يتمتع بها الملونون في الشمال ، فإن ذلك لم يأت على كل رواسب الماضي . ومازال الأمريكيون والأوروبيون ينظرون إلى السود نظرهم إلى المواطنين من الدرجة الثانية . ونضرب مثلا لذلك بالحادثة التالية :

فقد حدث في أغسطس من عام ١٩٦١م أن كان السيد « ميشيل كوليه » . وكان يمثل غانا في الأمم المتحدة - يسير في أحد شوارع نيويورك ، فحاول أن يستوقف سيارة أجرة ، وأشار إلى السائق ، ولكن هذا ؟ رفض أن يركبه سيارته مجرد أنه ملون ، وثار السفير الغاني ، ووقعت بينه وبين السائق مشادة تطورت إلى تضارب بالأيدي على مشهد من رجال الشرطة الذين انضموا إلى السائق ، وفي دار الشرطة أثبت السفير الغاني شخصيته فأفرج عنه فورا ، وأسرع « ادلاي

ستيفسون» وكان يمثل أمريكا يومئذ في الأمم المتحدة ، فأصدر بياناً يعتذر فيه ،
ويبدى أسفه .

إن إعلان حقوق الإنسان ينص على أن الناس سواسية ، وأنهم لا يتمايزون
بألوانهم ، ولا بأديانهم ، فلماذا تنتكر أمريكا لأول مبادئ حقوق الإنسان ؟
وكيف وهيئة الأمم المتحدة تستقر على أراضيتها ؟ .
من هنا بدأت حركة الملونين السود في أمريكا . تمردوا على هذا الإذلال .
ورفضوا هذه الأوضاع المهينة ، وظاهرتهم شرائع السماء والأرض ، والتشريعات
الأمريكية ذاتها . ولكن الولايات المتعصبة قابلت حركتهم بالقمع فزادتها
اشتعالاً .

لقد نشأ هؤلاء الملونون في أمريكا ، لا يعرفون لهم ديناً . اللهم إلا دين
سادتهم من البيض فتمسحوا ، أو تهودوا . وربما بقي بعضهم بلا عقيدة ، ولكنهم
مضطهدون منبوذون ليس لهم تاريخ ولا مقومات ، ولا يجمعهم إلا السخط
والاشتراك في معاناة هذه الأوضاع الظالمة ، والرغبة في الانعتاق من ربة العبودية
والاضطهاد ، ومن ثم كان التفات بعضهم إلى الإسلام . فليست لهم مع
المسلمين تجارب أليمة كتلك التي يعانون قسوتها مع سادتهم من البيض المسيحيين
واليهود .

وكان أروع ما ألهم وجدانهم ، وشدهم اهتمامهم تلك المساواة التي تقوم عليها
ساحة الإسلام . فالناس سواسية كأسنان المشط ، والمؤمنون إخوة ، ولا فضل
لأحد على أحد إلا بالعمل الصالح ، ولم يكن الملونون يريدون أكثر من ذلك .
فدخلوا في دين الله أفواجا ، وظهر فيهم دعاة وقيادات مختلفة ، تدعو إلى تحرير
رقابهم وأرواحهم باسم الإسلام .

وسرعان ما انتشرت الدعوة ، وتكونت الروابط والمراكز الإسلامية ، وسموها
أولاً : معابد ، ثم مساجد . ونشطت الدعوة وتطورت ، فقاموا بحركة اجتماعية

واقصادية وثقافية . فأصدروا المطبوعات ، وأنشأوا المدارس والمشافي ، وأقاموا
التعاونيات التجارية واتسعت حركتهم وزاد عددهم . . وانضم إليهم أباطهم
الرياضيون المرموقون من أمثال البطل العالمي : محمد علي كلاى ، وأبورزق ،
وكريم عبد الجبار . فكان ذلك واجهة دعائية أخرى لها بريقها ، وأثرها »
انتهى .

ثم يقول « جورديان » فى تعجب وأسف بالغين : « أما المرأة فعليها أن تبقى
عفيفة ، طاهرة حتى الزواج ، ووفية مخلصه حتى تموت » ولسنا ندرى لماذا
يعجب ويأسف لهذا ؟ إن المفروض هو ذلك العفاف ، والشرف والوفاء
والإخلاص والمحافظة على العرض قبل الزواج وبعده ، وطيلة حياة المرأة .
إذا كان عفاف المرأة وشرفها قبل الزواج وبعده ، أمراً مفروضاً ، مطلوباً فى
البيئة العربية الإسلامية وكان جورديان يعجب منه ، ويتأسف له . فهل نفهم
من هذا : أن هذه المفاهيم والقيم لا وجود لها عند الغربيين . فلا شرف عندهم
ولا عرض ولا عفاف ؟ وهل نفهم من هذا أنهم يعتبرون العفاف والإخلاص
والوفاء عند المرأة نقيصة من النقائص ؟ وهل من حق المرأة عندهم قبل الزواج
ومن بعده : أن تتحلل وتنحرف وتروى ظمناً أنوثتها كيف شاءت . ومتى
شاءت ، ومع من شاءت ! فلا ارتباط بزوجية ، ولا تقيد بأسرة ، ولا حفاظ
على نسب ، ولا اعتبار بعذرية أو بكاراة ، وإنما هى بهيمية حيوانية ، منتهى
حذرهما ، وتحفظها أم تملأ حقيبة يدها محبوب منع الحمل .
مقاييس مقلوبة ، ومعايير معكوسة ، وطباع منكوسة ، وآدمية موكوسة ،
وفطر مدخولة فاسدة ، لا يرجى منا خير ، ولا يفيد معها نقاش . هذه التى تأخذ
على عاتقها الدعوة الفحش والفجور ، والتحلل والإثم ، والعار . وتعتبر عفاف
المرأة قبل الزواج وبعده : أمراً سخيفاً يؤسف له
ياجورديان . إننا هنا عرب ، ومسلمون .

يهون علينا أن تصاب جسمنا وتسلم أعراض لنا وعقول نادى بعفة المرأة ، والمحافظة على شرفها ، ونعتبر المرأة المفرطة في نفسها ، امرأة ساقطة فرأس مال المرأة عرضها ، وحيائها ، وعفافها . وما تنزلت شريعة سماوية إلا وهى تحض على حفظ الأعراض والأنساب ، وقد جارت بالشكوى بعض البلاد العربية التى انتشر فيها الفساد الخلقى ، والجنسى ، انتشار النار فى الهشيم ، وأصبح الأولاد غير الشرعيين فيها يشكلون نسبة عالية لو اضطرت زيادتها لوصلت الدولة فى يوم من الأيام إلى قطع كبير من أولاد الحرام ، الذين لا يعرف لهم أصل ، ولا فرع ، كالحیوانات تماما .

المرأة الساقطة فى نظر العرب والمسلمين زانية ، ودستورهم ، وكتاب ربهم يقول : « الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشرحة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين » (١) فالزنا والشرك من واد واحد ، ولا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، وفى الحديث عن رسول الله ﷺ « قال : لا يزنى الزانى حين يزنى ، وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يتنهب نهبه يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن » (٢) ويقول الله محذرا من الزنا والفحش « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا » (٣) .

عندنا شىء اسمه غض البصر ، وحفظ الفرج لكل من الرجل والمرأة . فبالنسبة للرجال يقول تعالى « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون » (٤) وبالنسبة للنساء يقول

(١) النور ٣

(٢) البخارى باب لا يشرب الخمر

(٣) الإبراء ٣٢

(٤) النور ٣٠

تعالى «وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ، ولا يبدین زینتهن إلا ما ظهر منها ، ولیضربن بخمرهن علی وجوههن» ، ولا یبدین زینتهن إلا لبعولتهن ، أو آباءهن ، أو آباء بعولتهن ، أو أبناء بعولتهن ، أو إخوانهن أو بنی إخوانهن أو بنی اخواتهن ، أو نسائهن ، أو ما ملکت أیمانهن ، أو التابعین غیر أولى الإربة من الرجال ، أو الطفل الذین لم ینظروا علی عورات النساء ، ولا یضربن بأرجلهن لیعلم ما یخفین من زینتهن ، وتوبوا إلى الله جمیعا أیها المؤمنون لعلکم تفلحون» (١) والمراد من غض البصر ؛ وما ذکر معه : الطهارة والتعفف ، وعدم الاسترسال فی المغازلة ، لأنها توصل إلى الإثم والفسوق .

إن الحفاظ علی العرض والشرف فی البیئات الإسلامیة والعربیة ، أهزبج تہزج النساء والرجال ، وتہزج بجا الثقافة الإسلامیة ، والفکر الإسلامی ، والأدب العربی قبل الإسلام وبعده هذه هی انطباعاتنا من وحی العروبة والإسلام ، والقرآن الکریم ، وسنة سید المرسلین ، وعندما نقول : إن المرأة العربیة المسلمة تنهض وتعلم ، وتعمل وتتقدم ، فإننا نقصد أن یكون ذلك كله فی الحدود المرسومة ، والتقالید الصحیحة الموروثة ، والتعالیم الدینیة الإسلامیة السامیة فنهضة المرأة فی مفهومنا عمل ، وإنتاج ، ومشاركة فی الحیاة بذمة وشرف وأمانة تتحلی بها المرأة أیضا كانت فی بیتها أو وظیفتها ، أو زراعتها أو صناعتها أو تجارتها . لیست نهضة المرأة فی مفهومنا هز أرداف ، ولا كشف أذرع ، ونحور وسیقان . ولا أصباغ وعطور تلتطخ بها الوجوه والشفاه ولا تسكع فی الشوارع ، والطرقات ، والمحافل والمنتدبات لاصطياد قلوب الرجال ، والقضاء علی رصید الأمة من الطهارة والأخلاق .

فإنها الأمم : الأخلاق ، ما بقیت فإن هم ذهبوا أخلاقهم : ذهبوا

(١) النور ٣١

إن جورديان بناء على عجبه ، ودهشته ، من أن العرب والمسلمين يعتبرون في الفتاة قبل الزواج ، وفي المرأة بعد الزواج : العفة والاستقامة . راح يطيل في مقاله هذا ، يذكر حكايات هي أقرب إلى أن يكون ما فيها فضلا ، ومزية ومفخرة من أن يكون عيبا ، أو نقيصة . فقد أخذ يحبك في شبه أقصوصة حوارية . حادثة رأها ، وهو في صحراء العراق ، يجهد نفسه عبثا في أن يخلق فيها ما يثير عجبا أو دهشة ، وأية دهشة أو عجب في أن تتوقف به السيارة هو ورفيقته « كلاوده » وراهب فرنسي ، ومهندس سويسري في الصحراء بين بابل والبصرة ، فيلمحون قافلة صغيرة فيها بعض الرجال القلائل ، وامرأة ، وجمل وحماران . فيتحدثون إلى هذه القافلة فيفهمون أنهم يرجعون بجذء المرأة مقبوضا عليها إلى أبيها التاجر في الديوانية وكانت قد هربت مع عشيقها إلى البصرة . ويحكى كذلك في أسلوب التعجب والتأسف : أنه عرف رجلا في بيروت كان يحترف قتل البنات المنحرفات ، والنساء الساقطات لحساب الأسر ، والعائلات التي تتأثر لشرفها ، وتنتقم لعرضها . ففهما يكن من الخطأ والصواب ، أو الصدق والكذب فيما قاله وصوره ، فإن الذي يبدو واضحا جدا أن جورديان مغيظ محقق ، لأنه لازال في بلاد الشرق والعروبة والإسلام : أناس يهتمون بالعرض والشرف . وهو أمر لا يهضمه ، ولا يستسيغه ، ولا يتذوق له طعما .

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

شهادة المرأة أمام القضاء :

يقول جورديان عن المرأة إنها في نظر الإسلام « أقل عقلا من الرجل ، وأنها أمام القضاء شهادتها على النصف من شهادة الرجل ، وكذلك أمام الله » ولسنا ندرى للمرأة أمام الله إلا أن يكون ذلك في يوم القيامة ، وشهادتها هناك كأى رجل يشهد ، أو أى شئ يشهد . أما أن يكون جورديان يعتقد أو

يظن أن الله في هذه الأرض ، وهذه الحياة الدنيا جلسات يجلس فيها للقضاء ، فيعتبر شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل ، فهذا شيء لا نعرفه ، ولم نسمع عنه ، ولم يقل به أحد من المسلمين .

وكذلك أن تكون شهادتها أمام القضاء على النصف من شهادة الرجل شيء لا يعززه الفهم الصحيح الدقيق لتعاليم الإسلام . فإن الآية الكريمة التي لعل «جورديان» يعنها ، ويفهم فيها هذا الفهم الخاطيء غير واردة في مقام القضاء والتقاضي ، وإقامة الشهود في ساحة القضاء أمام القضاء ، بل هي واردة في مقام كتابة الدين ، وتوثيقه والإشهاد عليه ، من حيث إنه تثبيت واستيثاق ، وتذكير بين الناس بعضهم مع بعض . وذلك حيث يقول تعالى :

يأبؤها الذين أمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى ، فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب ، وللمل الذي عليه الحق ، وليتق الله ربه ، ولا يبخس منه شيئا . فإن كان الذي عليه الحق سفيها ، أو ضعيفا ، أو لا يستطيع أن يمل هو ، فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما ، فتذكر إحداهما الأخرى . ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله . ذلكم أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا ، إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ، وأشهدوا إذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد . وإن فعلوا فإنه فسوق بكم ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم» (١) ومما يدل على أن الآية في توثيق الدين بالكتابة ، للتدكرين المتعاملين فقط ، أنه جاء بعدها مباشرة آية الاستيثاق للدين بالرهن . فقال تعالى « وإن كنتم على سفر ، ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة ، فإن أمن

بعضكم بعضا فليؤد الذي أوّمن أمانته ، وليتق الله ربه ، ولا تكتموا الشهادة ،
ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ، والله بما تعملون عليم» (١).

أما في التقاضي والشهادة أمام القاضي . فإن للقاضي أن يحكم بشهادة
النساء دون الرجال وبشهادة امرأة واحدة ، وبأية قرينة أو بيّنة . فإن أقصى ما
يطلبه القضاء هو البيّنة على صدق الدعوى ، والبيّنة في الشرع أعم من الشهادة .
فكل ما يتبين به الحق ، ويظهر يقضى به القاضي ، ويحكم حتى إنه قد
يحكم بشهادة غير المسلم متى وثق بها ، واطمأن إليها . فاعتبار المرأتين في
الاستيثاق كالرجل الواحد ليس لضعف عقل المرأة ، ونقصان آدميتها
وإنسانيتها ، وإنما هو كما قال الإمام «محمد عبده» لأن المرأة ليس من شأنها
الاشتغال الكثير بالمعاملات المالية ونحوها من المعاضات والمبادلات . ومن هنا
تكون ذاكرتها في هذا المجال ضعيفة بينما هي قوية في الأمور المنزلية والأشياء
النسائية ، بل أقوى من ذاكرة الرجل ، ومن طبائع البشر عامة أن يقوى
تذكرهم للأمور ، التي تهتمهم ، ويمارسونها كثيرا ، ويكثر اشتغالهم بها حتى
يكونوا من أرباب الخبرة فيها .

فالآية الكريمة * كما يقول الشيخ شلتوت - جاءت على ما كان مألوفا في
شأن المرأة ، ولا يزال أكثر النساء كذلك لا يشهدن مجالس المداينات ، ولا
يشغلن بأسواق المبيعات فإذا كان المتعاملون في بيئته يغلب عليها اشتغال النساء
بالمبيعات ، وحضور مجالس المداينات كان لهم الحق في الاستيثاق بالمرأة على نحو
الاستيثاق بالرجل متى اطمأنوا إلى تذكرها ، وعدم نسيانها على نحو تذكر
الرجل ، وعدم نسيانه ، فالأمر في الآية الكريمة للإرشاد والتوجيه ، لا للفرض
والإلزام . والإيجاب .

وقد نص علماء المسلمين على أن من القضايا ما تقبل فيه شهادة المرأة

(١) البقرة ٢٨٣

وحدها ، وهي القضايا التي لم تجر العادة باطلاع الرجال على موضوعاتها كالولادة ، والبكارة وعيوب النساء الداخلية .

والله تعالى في محكم كتابه قد بين لنا : أن الرجل إذا اتهم زوجته بالخيانة الزوجية ، ولم تكن عنده البينة الكافية فعليه لإثبات دعواه ، أن يشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . وعليها إذا أرادت أن تبرئ نفسها أن تشهد كذلك أربع شهادات بالله ، إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين . فللرجل أربع شهادات ، وخامسة . وللمرأة أربع شهادات وخامسة . مثله تماما ، حذوك الشيء بالشيء ، على قدم المساواة بالرجل في الشهادة واليمين ، للدفاع عن العرض والكرامة ، يقول تعالى « والذين يرمون أزواجهم ، ولم يكن لهم شهود إلا أنفسهم ، فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ويدراً عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله . إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين » (١) .

البكارة ولبلة الزفاف :

«جوردیان» من أجل البكارة عند العرب والمسلمين : مغيظ محقق ، يهذى كالجنون ، ويهرف يا لا يعرف ، ويكرر دعاوى ظاهرة البطلان . فحمد ﷺ عنده متحامل على النساء ، متحيز للرجال ، لا يسمح للمرأة أن تظهر وجهها إلا للرجل الذي اشتراها من أبيها ، أو أهديت إليه . وهي سجينه محجوزة ، محبأة عن الأعين . وعلى هذا القدر من كلامه قد نجد الرد كافيا فيه : أن نكرر له ما سبق أن قلناه .

من أنه : ليس في الإسلام بيع المرأة ، أو هبتها لزوجها . ولكن خطبة ومهر

وزواج . وأن الإسلام قد أباح للمرأة الخروج للصلاة ، ومزاولة الأعمال ، وأباح لها كشف الوجه واليدين ، إلا أننا ماذا نقول ؛ في قوله بعد ذلك عن الفتاة البكر « إنها لا تستطيع أن تكون مجرد إنسان له أحاسيس ، يريد أن يعبر عنها لأنها ترهب وتمتنع من أجل مسألة «البكارة» فالعجب العجيب من أنه يصور البكارة بصورة صهام الأمان للعرض والشرف . ثم يكون أسفاً لذلك . فهل هناك قطرة سليمة تكره الشيء الطبيعي الدال على أن الفتاة طاهرة السلوك لم تتصل برجل قبل رجلها ! هل هناك أحد يكره براهين الشرف وأدلة العفاف التي جاءت طبيعة وفطرة ، فطر الله الناس عليها ! كلاً . بل هناك نفوس مريضة منحلة ترى أن اتصال الفتاة برجل قبل رجلها ، ربما يرفع قيمتها لأنها تكون قد اكتسبت شيئاً من المران والتدريب ، وسابق الخبرة . أليست هناك شهادة اسمها شهادة الخبرة ؟

يقول «جورديان» في تبرير فلسفته الشيطانية الشهوانية : «كيف تلعب الفتاة الرياضة ؟ كيف تركب العجلة ؟ ماذا تصنع إذا جرحت رغماً عنها ! هل تذهب إلى طبيب لإثبات الحالة بشهادة تقدمها لزوج المستقبل كبرهان براءة ؟ » .

قل ما شئت يا جورديان فالشرق شرق . والغرب غرب . والعرب عرب . والصهاينة صهاينة «وإنا أو إياكم لعلى هدى ، أو فى ضلال ميين» (١) - «لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين» (٢) إن الفتاة عندنا تلعب الرياضة ، وتركب العجلة ، وتقوم بالأعمال ، وتعرض للأخطار ، وتكافح في الحياة ، داخل المنزل وخارجه . ومع ذلك كله تظل عذراء مادام الجنس الملعون من أمثالك بعيداً عنها .

(١) سياً ٢٤

(٢) الفصص ٥٥

أما ما ذكره «جورديان» من أن الفتاة التي تخطب لرجل تقوم بفحصها معرّة في الحمام : أم الزوج وقرباته ، يفحصون : الشعر والأنف والأذن والأسنان والتنفس والصدر والبطن وإلى هنا يأتي دور القابلة التي تتولى بقية عملية الفحص إلى نهايتها الدقيقة . فهذا شئ لا يعرفه الإسلام الذي شرع في مثل هذا الموقف عملية الخطبة على أساس من الثقة المفروضة يخطب الزوج زوجته بعد أن يتعرف عليها ، ويسأل عنها ، ويحتهد في تخيرها ، ويباح له أن يرى وجهها وكفيها ، وربما أكثر من ذلك قليلا . ولا مانع من زيارة أهله لها ، وزيارتها لأهله .

وعلى هذا التشريع الإسلامي الحكيم ، يجري العمل في المجتمعات العربية والإسلامية .

كذلك ما ذكره جورديان من فض البكارة ليلة الزفاف بأصابع اليد ، فالإسلام يبرأ من ذلك ، وينهى عنه ، ويعتبره وحشية وحيوانية . وذلك مقرر ثابت وبديهي ، في تعاليم الإسلام ، والمخالف له لا يعتبر حجة على الإسلام . بل الإسلام حجة عليه .

الختان والحشيش وعقدة الجنس :

تناول جورديان مسألة ختان البنت عند بعض العرب والمسلمين بأسلوب الإشمئزاز لأن تلك النساء اللاتي يسمون بشرا ، يعاملن * فيما يرى * من مهدهم إلى لحددهم كالحیوانات لأن الرجال معذورون يريدون ضمان شرفهم . هكذا يقول . ولكن الواقع أن هذه المسألة لا تجعل البنت معاملة كالحیوانات . ولا علاقة لها بغرور الرجال ، وضمان شرفهم ، وما هي إلا في بعض بلاد العروبة والإسلام كشيء مستحب فقط ، له اعتبار ديني راجع إلى تكرمه الفتاة ليكون لها ختان وطهارة كما يختن الفتى ، ويظهر بإزالة غلفة الذكر التي أثبت الطب ،

أضرارها إذا بقيت .

وليس في الإسلام لختان البنت نص موجب ، أو نص محرم ، وهو يختلف باختلاف الأقاليم حارة ، وباردة ، واختلاف العادات الفاشية التي لا بأس على من يفعلها أو يتركها . وقد ذكر جورديان نفسه أنها تعمل في أواسط إفريقية في سن أعلى مما عند العرب ، وسماها عيدا كبيرا للأنوثة تشترك فيه كل العائلة ، تقليداً لا يلعب فيه الحياء ، أو الاعتبارات الجنسية أى دور ، لكنه لما أتى على ذكرها عند العرب هاجمها وقبحها ، وأخذ يلف ويدور ، ويتعب نفسه في التعليل لها حتى جعل من الحبة قبة ، ومن البسيط مشكلا ، فأخذ يستعرض دعوة الداعين ، إلى عدم الختان لأنه ينقص من شهوة المرأة فتحتاج إلى أن يغيب الرجل حين جماعها وقتا طويلا فيعمد إلى تناول المخدرات والحشيش ، ثم يعود فيبطل هذه النظرية . ويقول : إن الختان لا تأثير له في شهوة المرأة وأن الرجل في البيئة الإسلامية يتعاطى الحشيش لأن رأسه محشوة بأفكار جنسية تنفجر في أول مناسبة ، وهو سريع الاستثارة لحرمانه السابق ، وأن برود المرأة جنسيا برود روعي ، لا جسدي ، لأنها مصدومة نفسيا على طول الزمن .

وهذا تعليل غامض ، وغير مفهوم لأنه إذا كان الرجل سريع الإستثارة ، لعقدة الجنس وحرمانه السابق . فلماذا كانت المرأة باردة ، وهي مثله في هذه الظروف ، وهذا الحرمان ! لماذا لم تكن سريعة الاستثارة هي الأخرى ؟ إن تعليله هذا غير مقبول كالتعليل الأول الذي نقضه فكل من التعليلين لا تظهر له وجهة ، وكثيرا مالا يوجد ارتباط قط بين الحشيش والجنس فيشربه الأعزب ، ولا يقربه المتزوج الناجح في زواجه .

والتعليل الأولي بالقبول : إن تعاطى الحشيش عادة مزاجية كتعاطى السجائر والخمور ، وسائر المكيفات ، ووجدت في بعض البيئات الإسلامية والعربية (١)

(١) كما هي موجودة في بعض البلاد الغربية والأمريكية كما سيأتي ذكره في خاتمة هذا الكتاب

كأية عادة مستقبحة لا تقرها عروبة واعية ولا إسلام صحيح ، وقد عمل على إنائها وإفائها والترويج لها ، والتجارة في مواردها ، والإثراء من ورائها : هذا الوباء الذي كان كالسرطان في حجم الأمة العربية ، وفي بلاد الشرق الأوسط ألا وهو الاستعمار والرأسمالية والاستغلال الذي يمتص دماء الطبقات الفقيرة ، وغير الواعية بهذه الأساليب الشيطانية الجهنمية .

والأمل معقود على وعى الجماهير ، ونشاط المسئولين في القضاء نهائيا على رواسب الماضي البغيض الملوث بقاذورات الإستعمار .

الربا

وكذلك الشأن في رذيلة الربا ، التي يقول عنها جورديان : إنها متفشية في الأوساط العربية والإسلامية .

هذه الرذيلة مع أن الإسلام ينهى عنها كان العامل على إشاعتها بين الناس والجهلاء الجماهير الفقيرة وغير الواعية اليها : ماكان يجم على صدر البلاد من الرجعية والاستعمار ، والاستغلال الرأسمالي الذي يمتص دماء الشعوب من عروقها ، يتركها جثثا هامدة لاحراك بها ، وقد قطعنا شوطا كبيرا في القضاء على هذه الرواسب البغيضة بطرد الاستعمار ، وتأديب الرجعية ، ومنع الاستغلال ، وإشاعة الروح الوطنية والتعاونية الواعية في ظل النهضة العربية الإسلامية ، وتمكين أفراد الشعب بسائر طبقاته من المال العام والقطاع العام ، والموارد العامة للدولة ، وإتاحة الفرص أمام المواطنين للعمل والإنتاج ، ورفع مستواهم ، وتمكين العمال والفلاحين من الانتفاع بشمرات جهودهم التي كانوا ينظرون إليها في لفة وحسرة حين يشقون في جمعها وتسميرها لتذهب في ملح البصر إلى جيوب الخواجات المرايين ، والبنوك الأجنبية والإقطاعية والرأسمالية ، يعمل ويشقى أناس ، ولاجزاء لهم ويتمتع وينعم أناس ولاعمل لهم ، الأمر الذي من أجله انتفضت القاهرة بقيام ثورتها التحررية في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م فغيرت وجه الحكم ونظامه في مصر ، وطردت الاستعمار وأمت القناة ، وأسست المصانع الكبرى ، عملا منها على أن توفر للشعب بكافة طبقاته حياة الرفاهية والعزة والكرامة . ومن أجله أيضا انتفضت بغداد والعراق بقيام ثورتها في ١٤ تموز ١٩٥٨ م فغيرت وجه الحكم في العراق ونظامه وأخذت بعد صراعات طويلة

تتابع مسيرتها الاشتراكية لتوفير الرخاء ، والعدالة الإجتماعية بين كافة طبقات الشعب ، ومن أجله أيضا كانت انتفاضة اليمن ، والجنوب العربي ليتخلص من الملكية الفاسدة والاستعمار البغيض ومن أجله أيضا جرت في أنحاء كثيرة من العالم العربي والإسلامي انتفاضات كثيرة تقدمية واستقلالية كما جرى في الجزائر وليبيا والسودان وقبل ذلك سوريا ولبنان .

وأخذ الرؤساء والملوك يعملون على رفاهية شعوبهم وتقدمها كل حسب طريقته الخاصة ، ومن أجله أيضا أسهم العالم العربي والإسلامي إسهاما كبيرا في قضية العالم الثالث ، عالم عدم الإنحياز ، وفي قضية الدول النامية في أفريقيا وغيرها والوقوف إلى جانب الدول المكافحة في كل مكان حتى انبثقت من هيئة الأمم المتحدة لجنة تسمى « لجنة تصفية الإستعمار » .

الإستعمار الذي يعتبر بحق لعنة القرن العشرين ، والذي ذهب الى غير رجعة بعد أن تخلصت البلاد من كابوسه الخفيف .

إذا ذهب الحمار بأم عمرو فلارجعت ولا رجع الحمار ومن نظر إلى أحوال البلاد العربية والإسلامية اليوم ، وبعد أن تبوأَت مكانتها المرموقة . بعد حرب العبور ، وانتصارهم الساحق في معارك أكتوبر سنة ١٩٧٣ م المجيدة والتفاف بلاد العالم حولهم بالتقدير والاحترام ، والتعاون في مجالات الحياة ، وتبادل الخدمات اقتصاديا وسياسيا وثقافيا لا يسع إلا أن يتفاءل ويستبشر بمستقبل باهر مشرق للعرب والمسلمين ، ويكونون فيه قوة يحسب حسابها ، ويعترف بوزنها على الصعيد العالمي . فالنسبة العددية والمواقع الجغرافية والطاقت البترولية والزراعية والخصائص الثقافية والروحية والحضارية والقتالية ، كلها ورقات رابحة في أيدي العرب والمسلمين ولاسيما وقد أخذوا في الآونة الأخيرة يتخلصون من التباعية لغرب أو شرق ، ويعلنون استقلال الإرادة وحرية الحركة ويستديرون نحو دينهم ومركز إشعاعهم يحلون حلاله ، ويحرمون حرامه ،

ويأخذون في تقنين قوانينهم على ضوء شريعة الإسلام الغراء ، رافضين بعزم وإصرار ماسبق أن فرض عليهم الاستعمار من قوانين تحلل ما حرم الله بدعوى أنها المدنية والتقدمية . وأن تعاليم الإسلام أصبحت غير ملائمة لروح العصر والتقدمية « كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا » (١).

إن تعاليم الإسلام هي الخلاص لما فيه العالم من فوضى واضطراب وهمجية ، وانحرافات وجهالة جهلاء وضلالة عمياء « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » (٢).

إن الإسلام حرم الربا فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون (٣) » . إن الربا عادة يوجد في البيئات والمجتمعات التي توجد فيها الطبقة والفوارق المالية البعيدة المدى . الفقر المدقع بجوار الغنى الفاحش والرأسمالية المستغلة وهذا ما كان يمثل دوره الاستعمار والإقطاع وهو ما أخذت المجتمعات العربية والإسلامية في إزالة آثاره .

الخطيئة الآدمية والغريزة الجنسية

« جورديان » يشير بالخطيئة ، لاسيما الجنسية . ويفلسف لها مستنصرا بمفهوم في الدين النصراني الذي يقرر أن الشخص يولد مذنبا فيه الخطيئة ، بسبب وراثته

(١) الكهف ٥

(٢) المائدة ١٥ - ١٦

(٣) البقرة ٢٧٨ - ٢٧٩

ذلك من آدم وحواء ، لما أذنا وعصيا ربهما في الجنة وهو بأسف أشد الأسف لأن هذا المفهوم عن الخطيئة . وتقرير وجودها في الإنسان بالوراثة وبمجرد الميلاد ، لا وجود له في الإسلام وعند «محمد» ﷺ ، الذي يوصى بإخاد عطش الأحاسيس والشهوات . ويبدو أن «جوردريان» يتمنى أن يستغل الأديان كلها لمآربه ودعوته ، وتبريره للإباحية والرذيلة والخطايا الجنسية . وكيف يكون ذلك والله في محكم كتابه الكريم يقول : « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجزيه ، ولا يجند له من دون الله وليا ولا نصيرا (١) »

يقول جوردريان : « إن زلات الفتيات والنساء في العالم الإسلامي ليست خطايا أو ذنوبا كما هي في المفهوم المسيحي إن الخطيئة الموروثة أو قابلية الإنسان للخطيئة المولودة معه غير معروفة هناك حتى إن محمدا ﷺ يوصى بإخاد عطش الأحاسيس والشهوات بجرعات كبيرة ، يريد أن يقول : إن اعتبار الخطيئة موروثه في العرف المسيحي ، يجعل الأمر في الانحرافات الجنسية شيئا هينا . ولأن المسلمين لا يعرفون وراثة الخطيئة فوقفهم من الانحرافات الجنسية فيه شدة وقسوة مأخوذة عن محمد ﷺ ، الذي أوصى بإخاد عطش الأحاسيس والشهوات بقوة وقسوة في العقوبات التي فرضها .

ونرد عليه قائلين : إن الخطيئة ليست موروثه في عرف الدين المسيحي ولا غيره ، بدليل أن التوراة والإنجيل قد صرحا بمسئولية كل فرد عن نفسه مسئولية مطلقة ، فلو كانت الخطيئة موروثه كما يدعى لكان الإنسان مسيرا ، لا محيرا . وكيف يكون ذلك ، وقد أرسل الله الرسل ، وأنزل الكتب ، ووهب عقلا ، وأعد جنة للمطيع ، ونارا للعاصي ؟

في التوراة يقول الله تعالى بعد ذكر التشريعات التي فرضها على الناس « ملعون من لا يقيم كلمات هذا الناموس ليعمل بها » (التثنية ٢٧ : ٢٦) وإن

التوراة لتصرح بأن من لا يعمل بالشريعة ، وكذا الإنجيل : لن ينجو من عذاب جهنم في التوراة العبرانية عن يوم القيامة يقول الله تعالى : « أليس ذلك مكنوزا عندي ؟ محتوما عليه في خزائني ؟ لي النعمة والجزاء في وقت تزل أقدامهم » (التثنية ٣٢ : ٣٤) وفي التوراة السامرية « أليس ذلك مكنوزا عندي ؟ ومحتوما عليه في خزائني ؟ إلى يوم الانتقام » وفي الإنجيل يقول متى على لسان عيسى عليه السلام « خير لك أن يهلك أحد أعضائك ، ولا يلقى جسدك كله في جهنم وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فأقطعها ، وألقها عنك لأن خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم » (متى ٥ : ٢٩ - ٣٠)

ولقد صرح كتاب موسى بأن كل امرئ بما كسب رهين ، وكذلك وضع كتاب عيسى عليهما السلام يقول الله في التوراة « لا يقتل الآباء عن الأولاد ولا يقتل الأولاد عن الآباء كل إنسان بخطيئته يقتل » (التثنية ٢٤ : ١٦) وقد أكد هذا المعنى حزقيال (ذو الكفل) في سفره فقال « النفس التي تخطيء هي تموت ، الإبن لا يحمل من إثم الأب ، والأب لا يحمل من إثم الإبن ، بر البار عليه يكون ، وشر الشرير عليه يكون » (حزقيال ١٨ : ٢٠) ولقد جاء في كتاب موسى نص يفيد انتقال الخطيئة الى الجيل الثالث أو الرابع ، وهذا وإن كان معارضا بالنص الذي ذكرناه أولا وأكده حزقيال فإنه يفيد قصر الوراثة على الثالث أو الرابع من أعداء الله وحدهم . لا إلى العاملين بوصايا الله . أي أنه على فرض صحة النص فإن الوراثة ليست إلى الأبد « إني أنا الرب الهك إله غيور ، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء ، وفي الجيل الثالث والرابع من الذين يبغضونني ، وأصنع إحسانا إلى ألوف من محبي ، وحافظي وصاياي » (التثنية ٥ : ٩ : ١٠) . وفي إنجيل متى يقول عيسى عليه السلام في موعظة الجبل « فكل من يسمع أقوالى هذه ، ويعمل بها ، أشبهه برجل عاقل بنى بيته على الصخر ، فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح ووقعت على ذلك البيت فلم يسقط لأنه كان

مؤسسا على الصخر. وكل من يسمع أقوالى هذه ، ولا يعمل بها ، يشبه برجل جاهل بنى بيته على الرمل . فتنزل المطر ، وجاءت الأنهار ، وهبت الرياح وصدمت ذلك البيت . فسقط وكان سقوطه عظيما » (متى ٧ : ٢٤ - ٢٧)
 وإنما لتساءل : هل يمكن أن يكون آباء الدين المسيحى ، قد اخترعوا فكرة الخطيئة وميراثها تبريرا منهم لعقيدة الصلب . المبنية عندهم على : رضاء السيد المسيح بالتضحية بنفسه تخلصا للبشر من الخطيئة الموروثة ؟
 إننى لأرجح ذلك . وأرجح أن ذلك كله دخل فى دين السيد المسيح ، وبعد وفاته بثلاثة قرون يقول حبيب جرجس عميد الكلية الإكليريكية بمصر « إن آريوس القس الإسكندرى قد زاغ عن الحق وابتدع بدعاً وعلم خلافا لتعليم الكتاب المقدس بأن السيد المسيح مخلوق وليس مولودا من الأب ، وأنه غريب عن الجوهر الإلهى ، وبما أن هذا التعليم قد أزعج الكنيسة ، ومن شأنه أن يهدم أساسات الدين المسيحى ، وقد كاد يسرى هذا السم فى أعضاء كثيرين فلذلك قام جميع الآباء لإدحاض هذه البدعة ، ثم إن الملك قسطنطين منعا للخصام أمر بعقد مجمع للنظر فى هذا الأمر ، فاجتمع فى نيقية (١) ٣١٨ أسقفا من علماء الكنيسة ، يتقدمهم الكسندروس البابا الإسكندرى وبعد أن استدعوا آريوس ادحضوا بدعته ، وقرروا الاعتقاد بأن المسيح - له المجد - مساو للأب فى الجوهر ، وأنه مولود غير مخلوق ، وقطعوا آريوس من شركة المؤمنين ، وذلك سنة ٣٢٥ ميلادية ، ثم ألقوا الجزء الأول من قانون الإيمان الذى يحتوى على سبع قضايا . . الخ » (٢).

وأيا ما كان الأمر . فلا أظن أن المسيحية تريد ، كما يريد « جورديان » أن تتخذ من القول بهذه النظرية مبررا لشيوع الآثام والذنوب والانحرافات الجنسية ،

١ (١) نيقية : تركيا الآن

(٢) ص ٩٩ - ١٠١ خلاصة الأصول الإيمانية طبعة وزارة المعارف بمصر سنة ١٩٢٦ م

فإنها دين الطهارة والعفة ، والروحانية والصفاء النفسى . وإن الأم التى أنجبت رسول المسيحية أشاد القرآن بطهارتها وعذريتها ولعن اليهود الذين اتهموها بالفاحشة « يامريم إن الله اصطفاك ، وطهرتك ، واصطفاك على نساء العالمين » (١) « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً » (٢).

إن المسيحية ماتزال تدعو إلى الفضائل ، ونهى عن الرذائل وقد اعتبر المسيح نفسه جريمة الزنا من أبشع الجرائم وذلك فى قوله « من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة : زنى ، فسق ، قتل ، سرقة ، طمع ، خبث ، مكر ، عهارة ، عين شريرة ، تجديف ، كبرياء ، جهل . جميع هذه الشرور تخرج من الداخلة وتنجس الإنسان » (موقس ٧ : ٢١ - ٢٣) وإن المسيحية ماتزال تساهم مساهمة فعالة فى تقويم اعوجاج الإنسانية ، علما منها - بما أسلفنا - بأن الإنسان مازال هو الإنسان . من بعد المسيح كما كان من قبل المسيح . لم يطرأ عليه أى تغيير فى ممارسة الخطيئة ، لم يتطهر منها ، ولم يُعصم عنها وسيحاسب عليها أمام الله سبحانه (٣).

وقد بين الله فى كتابه الكريم : أن النصارى أقرب مودة للمسلمين ، ووصفهم بصفات طيبة فقال تعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا : اليهود ، والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا : الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون : ربنا آمننا

(١) آل عمران ٤٢

(٢) النساء ١٥٦

(٣) لو كانت الخطيئة موروثه فى الآدميين قهرا عنهم فلماذا يحاسبون عليها ولماذا أرسل الله الرسل وشرع الشرائع : ولو كانت الخطيئة موروثه عند آدم وحواء ؟ فمن أين ورثها آدم وحواء إن آدم وحواء تابا عن بعض الأكل من الشجرة وقبلت توبتهما والتائب من الذنب كمن لا ذنب له فأين هي الخطيئة إذن حتى تورث !؟ والقرآن يقول وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى سورة طه .

فاكتبنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ، فأتاهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين » (١).

أما نحن المسلمين فنعتقد أن الإنسان لم يولد وهو يحمل ميكروب الخطيئة في جسده أو فطرته بل هو مولود على الفطرة ، فكل مولود يولد على الفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وهي السلامة والبراءة من الكفر والمعصية ، ثم يطرأ عليه الشر بعد ذلك عارضا وافدا على فطرته ، إلا أنه مع ذلك عرضة للخطيئة ضعيف أمام الشهوات والغوايات سريع التأثر بمغريات الشر والفساد المفروض فيه أنه بشر ، وأنه يزول ويعصى ربه ، أحيانا كثيرة لكن برغم ذلك يحذر الإسلام من الشر والوقوع فيه ويلوح له بالعقوبات الرادعة وينظر اليه نظرة فيها الخرم والتهديد والوعيد ليكفه عن مزاوله الآثام ، ويعده بالثواب والنعيم المقيم ، والسعادة في الدنيا والآخرة إذا التزم طاعة الله ، ونظافة السلوك وعمل الخير ، ويوجب الإسلام على الناس متكافلين متعاونين : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . يقول القرآن الكريم « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ويقول تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » ويقول « ولتكن منكم أمة ، يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » .

ويعتبر الإسلام أفراد المجتمع في كل خلية من خلاياه في رعاية راع يكون مسئولاً عنهم ، يوجههم خلقيا ودينيا واجتماعيا ويحافظ عليهم من الشذوذ والانحراف وفي ذلك يقول نبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه « قال : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته والأمير راع والرجل راع على أهل بيته والمرأة راعية

على بيت زوجها وولده فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته^(١) .
 والمفروض في الراعي : أن تكون عنده غيرة وروح عالية في منع الشر
 والفساد وإشاعة الخير والصلاح ومن ذلك ما يوجبه الإسلام على الرجل : أبا
 أزوجا أو أخا من رعاية لابنته أو زوجته أو شقيقته رعاية ليس مبناهما التحكم
 والاستبداد أو الاحتقار والتنقيص وإنما مبناهما الحب والتقدير والتعاون على بلوغ
 الآمال ، والمحافظة على مقدسات الأمور وليس في ذلك سلب لحق المرأة في
 تقرير مصيرها والتعبير عن أحاسيسها ولا نزع المسؤولية منها ، والقائما على عاتق
 أيها ، أو زوجها كما يدعى « جورديان » في قوله عن نبي الاسلام « والمرأة في
 نظره غير ناضجة عقليا حتى نهاية حياتها مسلوبة الحق في تقرير مصيرها ، والتعبير
 عن أحاسيسها تقع مسئولية سلوكها وأعمالها أولا وأخيرا على الأب أو الزوج » .
 هل في رعاية الحاكم لرعيته تنقيص للرعية ، وسلب لحقوقها ؟ كلا بل هو
 أداء لحقوقها هل في رعاية الرجل لأولاده حتى الذكور منهم تنقيص للأولاد
 وسلب لحقوقهم ؟ كلا بل هو أداء لحقوقهم فكذلك ليس في رعاية الرجل للمرأة
 تنقيص أو إهانة ، بل هو تكريم وتكامل .

ومع نظرة الحزم والوعيد والتهديد التي ينظر بها الإسلام الى المنحرفين والعصاة
 والساقطين والساقطات نراه لا يغلق أمامهم باب الرحمة ، أو يسد في وجوههم
 باب التوبة ، فمن تاب من ذنبه كان كمن لا ذنب له يقول تعالى في محكم كتابه
 « يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب
 جميعا إنه هو الغفور الرحيم »^(٢) ويقول « إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا
 فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيا ومن تاب وعمل صالحا

(١) البخارى باب المرأة راعية في بيت زوجها

(٢) الزمر ٥٣

فإنه يتوب الى الله متاباً^(١) .

والتوبة هي الندم على مافات والعزم على عدم العودة ، ورد المظالم إلى أهلها بقدر المستطاع يقول تعالى « فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٢) » .

إن الحرية التي يريد « جورديان Gordian » ان يعطيها للمرأة على المدى الواسع حرة في شرفها وعرضها وعلاقاتها بالرجال وإشباع شهواتها وغرائزها لا قيود لحدود لادين لا قانون ، لاستشارة ، ولارعاية ، حرية تأنف منها الحيوانات ولاينادى بها إلا في أحسن المجتمعات من أبيقورية ، وأرسينية ، ومزدكية ، ويهودية صهيونية ترى الحصول على الذهب بأي ثمن كان .

إن الحرية بهذا المفهوم لا يصح القول بإعطائها للرجل وللمرأة ولا يوجد في سنن الحياة ونواميسها وقوانين المجتمعات حرية مطلقة إلا لله الفاعل المختار ، الواحد القهار ، ماشاء يفعل ، لا يسأل عما يفعل . فعال لما يريد ، ولا يفعل الا ما فيه الحكمة .

إنذار من جورديان :

ولقد راح « جورديان » يسلك مسالك نفسية ، وضروبا مسدودة عقيمة مفتعلة ليخونفا عاقبة مانحن فيه من عفة وطهارة واستقامة فيقول :
« إن الرجل - أي العربي المسلم - قد يكون في العشرين أو الخامسة والعشرين من عمره ، تحشى رأسه منذ نعومة أظفاره بأن المرأة صنف منحط القدر محرم بطبيعته وعندما تتيقظ إحساساته يشعر أنه منجذب بشدة الى تلك الكائنات المحرمة ، وكلما تقدم به السن ، زاد الحجاب كثافة بينه ، وبين المرأة ،

(١) الفرقان ٧٠ - ٧١

(٢) البقرة ٢٧٥

وزادت رغبته فيها . وعندما يصبح ذلك غير مطاق بالنسبة له يلتقي بنفسه في أحضان أترابه ليجد عندهم بعض الهدوء ، وراحة البال ، وتصيح المرأة المشتاة صنفاً مكروهاً وتحول تلك التي توقظ الأحلام ، ولاتحققها الى عدو ممقوت كل شىء : التفكير ، الكراهية ، الأحلام ، كل ذلك يتركز على المرأة ، ويدور حولها تلك المحرمة المحاطة بالأسرار الخادعة الجذابة ، فالنبضات الجنسية لايمكن إطفائها ببساطة كإطفاء النور الكهربائى مثلاً ، فهى تتجمع وتصدع ببطء الى الرأس » ثم قال : « إن ذلك أمر مخيف جداً » وساق حديثاً عن شاب سورى يمتن الطب النفسانى يزعم انه اعترف له بأن العرب والمسلمين يقاسون من العقد الجنسية فى التصرفات والسلوك والحب والبغض والثقة بالنفس ثم ساق حديثاً عن سيدة ألمانية أرسلت له خطاباً تسأله : ماذا تصنع مع زوج مسلم تركى مثقف ، شديد الغيرة عليها من الماضى والحاضر والمستقبل . ويعلل « جورديان » ذلك بأنه مسلم . والمسلمون يفقدون الانسجام الزوجى لتعقدتهم جنسياً .

ونحن نقول : إن هذه المبالغات التى حاكها حول غريزة الجنس ، وما تفعله فى نفسية الشاب المتعفف تذكرنا بتلك المبالغات التى حاكها العالم النفسانى اليهودى « فرويد » حول غريزة الجنس ، ورد إليها جميع الغرائز والعواطف والإنفعالات فليس فى الإنسان إلا : جنس . وجميع أعماله وتصرفاته من ألفها إلى يائها راجعة إلى الجنس . وقد خطأه فى ذلك غيره من العلماء الراسخين فى هذه العلوم السيكولوجية .

وأياً ما كان من مبالغات « جورديان » أو مبالغات « فرويد » Froeed فإننا نحن العرب والمسلمين نعتقد أن الجنس لا يزيد عن كونه إحدى الغرائز ، وقد يكون من أقواها . وللإسلام فى معالجة الغرائز سياسة حكيمة هى التى قالها ، ويرضى عنها علماء النفس الراسخون فى العلم ، سياسة التوحيط ، والإعلاء والتوجيه ، والتسامى بالغريزة . لاكبت مطلق ، أو رهبانية فإن الكبت خطر ،

وضار. ولا إشباع مطلق آثم لا حدود له ، فإنه كذلك خطر وضار وكل ما في الإسلام مما يتعلق بالمرأة ، وغريزة الجنس لا يخرج عن هذا التخطيط السليم الحكيم ، عفة ، وخطبة ، وزواج ، وأسرة فاضلة متكاملة تخطيط بيد الله الحكيم الخبير ، الذي خلق النفوس ، وهو أعلم بما يصلحها ، ويناسب سلامتها واتزانها فرداً ومجموعاً ، ولسنا على استعداد لأن نعدل عن بيان الله وهديه ، إلى أى بيان آخر ، يتنافى معه ، ولا يماشيه ، وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ، ولا الأموات .

ولا يستوى وحى من الله منزل وقافية في العالمين شرود
كيف يتهم الإسلام بتوليده الكبت والعقد بسبب التشرذم في المحافظة على شرف الفتاة وعرضها هذا الإتجاه نفسه موجود في التوراة مطابقاً لما جاء في الإسلام حيث جاء في التوراة ما نصه « إذا اتخذ رجل امرأة ، وحين دخل عليها أبغضها ، ونسب إليها أسباب كلام ، وأشاع عنها اسماً ردياً . وقال : هذه المرأة اتخذتها . ولما دنوت منها لم أجد لها عذرة ، يأخذ الفتاة أبوها وأمها ، ويخرجان علامة عذرتها إلى شيوخ المدينة ، إلى الباب . ويقول أب الفتاة للشيوخ : أعطيت هذا الرجل ابنتي زوجة فأبغضها . وها هو قد جعل أسباب كلام قائلاً : لم أجد لبتك عذرة . وهذه علامة عذرة ابنتي ، ويبسطان الثوب أمام شيوخ المدينة ، فيأخذ شيوخ تلك المدينة ، الرجل ويؤدبونه . ويغرمونه بمئة من الفضة . ويعطونها لأبي الفتاة ، لأنه أشاع اسماً ردياً ، عن عذراء من إسرائيل ، فتكون له زوجة ، لا يقدر أن يطلقها كل أيامه .

ولكن إن كان الأمر صحيحاً ، لم توجد عذرة للفتاة ، يخرجون الفتاة إلى بيت أبيها ، ويرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت ، لأنها عملت قباحة في إسرائيل ، بزناها في بيت أبيها فتترع الشر من وسطك » [التثنية ٢٢ : ١٣ - ٢١] .

علماء الدين الإسلامى

«جورديان» حانق على علماء الدين الإسلامى ، لأنهم فى نظره العقبة الكؤود فى سبيل هذا الذى يسميه ، تقدماً وحضارة ومدنية . يريد لهم أن يكونوا طوع أهوائه وشهوته ، وأداة فعالة فى ترويج سمومه وأفكاره . لماذا تكون هناك ممانعة ضد الإباحية والرذيلة ؟ لماذا تكون هناك مثل وقيم روحية وعقائد سماوية ؟ يقول جورديان عن العلماء « هم مصر جامعة الأزهر الإسلامية تون آراؤهم فى آذاننا فى عصرنا هذا كعقائد القرون الوسطى .

لأنهم لا يميزون منح دم لإنقاذ حياة مفكر حر ، ولأنهم يقولون : إن عقل المرأة لا يكتفى لتوليها وظيفة عامة ، وهم فى إيران أشعلوا ثورة كان من ضحاياها ألف شخص لمنع إعطاء المرأة حق التصويت . وهم فى تونس يوصون بعلف النساء بالمكرونة حتى يسمن أطرافهن ، وأجسادهن ، والحاكم الوحيد الذى استطاع أن يقاوم العلماء هو : بورقيبة . وغالبية حكام العالم الإسلامى ما زالوا مكبلين بأرائهم القديمة بالتحامل على المرأة ، بسبب العقيدة التى حفرت فى قلوبهم . بأن الرجل أفضل وأكرم وأعلى شأنًا من المرأة . والسبب : هم العلماء الذين كانوا فى تشريعهم مجحفين فى حق المرأة ، مفضلين للرجل . جعلوا فضله ورفعة شأنه : قانوناً إلهياً .

هذه دعاوى ومفتريات يملها الجهل ، وسوء التقدير ، والتسرع فى إصدار الأحكام . فلم يصدر الأزهر فتوى بتحريم نقل الدم ، أوفتوى بأن المرأة لا تصلح للوظائف العامة ، ولم يحكم علماء تونس بتسمين المرأة وبياضها واستدارتها وفيما سبق أن شرحناه وبيناه من موقف الإسلام والمسلمين من المرأة

وقضاياها ما فيه الرد الكافي .

إلا أنني أحب أن أقول لجورديان : إن الدين الإسلامي ليس كما يصوره ويتصوره ، وعلماء الدين الإسلامي ليسوا كما يصورهم ويتصورهم ، وإن تشبيه آرائهم بآراء الكنيسة في القرون الوسطى تشبيه جانبه الصواب .

إن الدين الإسلامي دين رحب الصدر ، يحب البحث والتفكير ، ويحترم النافع والمفيد ، ويعتبر حرية الرأي ويناقشها . وهو دين الفطرة والعموم للناس كافة ، والخلود إلى يوم الدين . دين القيادة والريادة في مجالات الحياة ومرافقها ، يتبنى كل صالح ، ويساير التقدم البشري إلى آخر مداه . ولا يجب أن يعيش في الظلام والجحور والأوكار ، والتاريخ يقول : إن أوروبا قضت على أفكار القرون الوسطى ، وتخلصت من سلطان الكنيسة الذي كان يحارب العلم ، ويفرض الجهل . ويقول «أطفئ مصباح عقلك ، واعتقد وأنت أعمى» وتخلصت لأنها أقتبست الأفكار الحرة من تعاليم الإسلام ، وواقع العرب والمسلمين الذين تتلمذ عليهم أهل أوروبا لما أحتكوا بهم في الأندلس ، وصقلية والبندقية ، والحروب الصليبية والرحلات التجارية ، والحج إلى بيت المقدس .

إن الإصلاح الكنسي ، وجميع صيحات التحرر والإنطلاقات الفكرية والعلمية في أوروبا . كان ذلك كله مقتبساً ومأخوذاً عن الروح الإسلامية ، وتعاليم الإسلام ، ومبادئه البناءة الخالدة ^(١) . والمذهب البروتستانتي الذي نادى به لأول مرة «مارتن لوثر» كان متأثراً فيه إلى حد بعيد ، بما في الإسلام من حرية الرأي والفكر ، ومناقشة العقائد وذم الإتياع والتقليد الأعمى .

(١) انظر كتاب : صلة الإسلام بالمسيحية للمرحوم الشيخ أمين الخولى . ورسالة التوحيد للمرحوم الشيخ محمد عبده . و «اقتباس الإصلاح الأوروبى من الإسلام» و «شمس على الغرب» للكاتبة الألمانية : زجرید هونكة

سل التاريخ يا «جورديان» :

سل التاريخ ينبئك أننا نحن العرب والمسلمين مهد العلم والتعليم ، أحضناه وليداً ، وتعهدناه يافعاً . لم نكن في يوم من الأيام أعداء العلم ، وحلفاء الجهل ، ولم يكن إطلاق عصور وسطى إطلاقاً سليماً صحيحاً بالنسبة لنا ، ولكنه إطلاق خاص بالغرب وبلادهم .

سل التاريخ ينبئك عن أول من أسس المكتبات ، وفتح المعاهد والجامعات ، وشجع المترجمين وأجزل العطاء للعلماء والباحثين ، وإن كانوا مخالقيين له في الملة والدين .

سل التاريخ ينبئك عما كان في دمشق وحلب وبغداد ، وقرطبة والإسكندرية والقاهرة والبصرة وفاس . وغرناطة . من مكتبات وجامعات تبحث في سائر العلوم والمعارف سل التاريخ ينبئك أن أول مدرسة طبية أنشئت في أوروبا على نظام سليم هي التي أسسها العرب في «ساليرن» بإيطاليا .

سل التاريخ ينبئك أن أول مرصد أقيم في أوروبا هو الذي أقامه العرب بأشبيلية .

سل التاريخ ينبئك عن الساعة الدقاقة التي أهداها الخليفة المسلم إلى الملك الأوربي ، فلما سمع القساوسة دقاتها . قالوا : إنها مسكونة بالشياطين .

سل التاريخ ينبئك أن هذه المشاعل العلمية والثقافية في المباحث الكونية وغيرها إنما كانت تحملها سواعد علماء الدين الإسلامي .

سل التاريخ ينبئك أن أقدم جامعة يعرفها إلى اليوم ، وجه الأرض ، ليست في باريس ، أو لندن ، أو برلين ، أو هسبورج ، وإنما هي في القاهرة وهي الجامعة الأزهرية التي تضم كلية لدراسة العقيدة والفكر ، وأخرى لدراسة اللغات والآداب ، وأخرى لدراسة الشريعة والفقه المقارن ، وأخرى للتجارة والمعاملات والإدارة ، وأخرى للهندسة ، وللطب وللزراعة ، وغير ذلك من فروع المعرفة

الإنسانية . وقد سبقت الإشارة إلى كلية البنات الإسلامية بهذه الجامعة الأزهرية لتخريج المرأة الرائدة القائمة التي تستضيء في نهضتها المدنية بوحى الله ، وهدى السماء .

يقول المؤرخ الفيلسوف الأمريكي « درابر » : « إن المسلمين الأولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى واليهود على مجرد الإحترام . بل فوضوا إليهم كثيراً من الأعمال الجسام ورقوهم إلى مناصب الدولة الهامة . حتى إن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة يوحنا بن ماسويه . فلم يكن ينظر إلى البلد الذي عاش فيه العالم . ولا إلى الدين الذي ولد فيه . بل ينظر إلى مكانته في العلم والمعرفة . »

ويقول « غوستاف لوبون » الفيلسوف الفرنسي المشهور « إن العرب أول من علم العالم : كيف تتفق حرية الرأي من استقامة الدين » ويقول أيضاً « إن القاعدة عند العرب : جرب ، وشاهد ، ولاحظ . تكن عارفاً . وعند الأوربيين إلى ما بعد القرن العاشر : اقرأ الكتب ، وكرر ما يقوله الأستاذ تكن عالماً » . ويقول « سيديو » : « إن العرب أول من أستعمل الساعة الطنانة ، وأول من أتقن الساعة الزوالية ، وأول من اخترع البندول ، وأن الساعة التي أهداها الرشيد إلى الملك شارلمان هي أول ساعة عرفها الإفرنج » .

إن دين الإسلام كله تقدير للعلم والعلماء ، والفكر والمفكرين ، وعلماء الدين الإسلامي يعلمون ذلك ، وينطبعون به ، ويعملون على ضوئه ، فكل ما ينسب إليهم من الجهل ، أو التعصب ، أو ما شاكل ذلك : فزور وهتان .

إن علماء الدين الإسلامي غير منفصلين عن الحياة العامة ، إن اليقظة السياسية والوطنية والنهضة الإجتماعية الإستقلالية التي سرت روحها في ربوع الوطن العربي والإسلامي للتخلص من وباء الإستعمار والإستبداد . لوتعمقنا في دراستها لأمكننا أن نلمح فيها جهود رجال الدين ومساندتهم من الشيخ جمال

الدين الأفغانى الذى أنطلقت صيحاته الدينية توقظ النائمين ، وتزلزل عروش الظالمين إلى الشيخ محمد عبده الذى أدلى بدلوه فى السياسة والوطنية ، وحاول « هانوتو » و « رينان » فى أصول العقائد الإسلامية فأفحهما . إلى البطل أحمد عرابى المناضل السياسى الدينى ضد الرجعية والإستبداد إلى الشيخ على يوسف والشيخ سعد زغلول وغيرهم وغيرهم من رجالات الوطنية والنهضات الإجتماعية التى لا تستغنى عن الإهتمام بهدى الدين والإعتناء بالقيم الروحية ، وجعلها أساساً للتقدم المادى إلى أن كان الوعى الثورى العربى الذى تفجر فى ثورة سنة ١٩٥٢ م بالقاهرة ، والذى بنى نهضتنا الوطنية والسياسية على أساس دينى واع سليم . فطرد الإستعمار من البلاد ، وطارده فى كل مكان ، وكان تاجاً توجت به جميع الجهود الماضية ، والإرهاصات السابقة إذ انتصرنا هذا الإنتصار الباهر فى أكتوبر المجيد من سنة ١٩٧٣ م بعد أن أخذنا على عاتقنا بناء دولتنا على العلم والإيمان ، فكانت صيحات جنودنا المؤمنة ، وهى - تعبر قناة السويس ، وتدمر خط « بارليف » وتندفع إلى قلب سيناء تزلزل الأرض تحت أقدام الأعداء ، وهى تقول : « الله أكبر » .

لقد تحققت مخاوف النائب الإنجليزى الذى قال فى مجلس العموم أيام الإحتلال البريطانى فى مصر « لن تثبت لنا قدم فى مصر . ما دام الأزهر فيها » لقد كان يعنى أن جامع الأزهر كان هو المحرك والدينامو الروحى والفعلى للثورات والمتاعب التى كانت تشن على الإحتلال الإنجليزى . وكان الحصن الثورى التليد الذى خرج منه الطالب الأزهرى « سليمان الحلبي » فتوجه إلى « كليبر » قائد جيوش الإحتلال الفرنسى فى مصر ، ففضى عليه بسكينه الذى كان مشحوداً شحداً روحياً . قبل أن يشحذ شحداً مادياً . ومن ساحة الأزهر ، ورحابة صدره أن عرف القساوسة الوطنيين المصريين طريقهم إلى منبره ، يتبأون قمته فى الثورات الوطنية ليغلنوا وحدة الوطن ، ووقوفه صفاً واحداً فى وجه الإستعمار

ليأخذ عصاه ويرحل .

وليس إعتباطاً ولا صدفة أن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، أعلن القتال في القتال من فوق منبر الأزهر سنة ١٩٥٦ م فقد كان الهدف : إعطاء الدفعة بالسلاح طاقة ، وشحنة من العقيدة الدينية التي تجعل من الموت في ساحة القتال شهادة في سبيل الله . توجب لصاحبها جنة الله .

إن «آية الله كاشاني» عالم إيران الإسلامي ، كان يطرد الإنجليز من «عبدان» و«إيران» يوم ساند «مصدق» في نضاله السياسي ، الوطني وقال «كاشاني» قولته المشهورة «على الإنجليز الكلاب ، مصاصي الدماء أن يخرجوا من بلادنا» .

إن هذه الحقيقة التي غفل عنها «جورديان» قد أدركها وقدرها الباحثون من المفكرين والمستشرقين حيث يقول أحدهم «إن الإسلام تتركز مهابته اليوم في ثلاثة أشياء : الكعبة ، والقرآن ، والأزهر هنا هم علماء الدين الإسلامي الذين يصفهم جورديان كذباً بالتخلف والرجعية . ويقول الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا في مجلة «روز اليوسف» عدد أغسطس ١٩٧٦ م مؤيداً هذه الحقيقة . ما نصه : «على أن أروع نماذج إتخاذ الدين قوة تحررية ضد الإستعمار قد تمثل في عالمنا العربي فقد تنبه المستشرق الفرنسي «جاك بيرك» الذي عاش فترة طويلة من حياته في شمال إفريقيا ، إلى الدور الكبير الذي لعبه الدين الإسلامي في الثورة الجزائرية ، وفي حركة مقاومة الإستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا عامة . وجعل من هذه الظاهرة موضوعاً رئيسياً لعدد غير قليل من كتبه ، وكانت الحقيقة التي توصل إليها : هي أن الدين في هذه المنطقة من العالم لم يكن على الإطلاق عاملاً مخدراً للشعوب ، بل كان على العكس من ذلك سلاحاً عظيم الفاعلية ، نبه الشعوب إلى حقوقها ، وساعدها على حفظ أصالتها ، وصون تراثها في وجه استعمار يملك قدرة هائلة على التغلغل والتسلط . لافي الميدان السياسي

والإقتصادى فحسب ، بل فى الميدان الفكرى والحضارى أيضاً . فتمسك شعوب تونس والمغرب والجزائر بقيمهم الدينية فى عصر الإستعمار الفرنسى لم يكن على الإطلاق من قبل « الدروشة » أو التخدير ، بل كان هو القوة التى أعانتها على التصدى لمحاولات القضاء على هويتها وأصالتها . وهكذا أفلحت هذه الشعوب فى مقاومة جهود فرنسا من أجل تغريبها - وأنا أستخدم كلمة « التغريب » هنا ، بمعنيين متكاملين : معنى الإغتراب عن الذات وتراثها وأصالتها من جهة ، ومعنى إصطباغ بالصبغة الغربية من جهة أخرى - بفضل تشبثها بطوق النجاة الأخير الذى بقى لها ، وهو القيم الدينية . على أن هذا النموذج لا يقتصر على شمال إفريقيا ، أو على الأمثلة التى أشار إليها « جاك بيرك » فحسب . ففى مصر كانت كثير من الثورات الشعبية ضد الإستعمار تتخذ طابعاً دينياً ، وذلك منذ وقفة الشيخ عمر مكرم الوطنية الرائعة ضد طغيان الحملة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر ، حتى الدور البطولى الذى قام به رجال الدين المسلمين والمسيحيين فى ثورة ١٩١٩ م .

وفى ما بين هذين الموقفين كان لرجال الدين دور لا ينكر فى ثورة عراقى ، بل إننى ، وإن لم أكن مؤرخاً أتصور : أن حلقة الذكر المشهورة التى قيل : إن عراقى أقامها عشية موقعة التل الكبير وهى الموقعة التى كان يعرف أنها حاسمة فى تقرير مصير البلاد إزاء الإحتلال البريطانى ، كانت لها - إذا كانت قد حدثت بالفعل - دلالة رمزية بالغة . فتفسيرها الظاهرى هو أنها كانت دليل التخلف فى وجه قوى استعمارية تستند إلى أحدث أساليب التكنولوجيا المعروفة فى ذلك الحين . ولكن تفسيرها الأعمق : هو أنها كانت محاولة لإستخراج القيم الدينية من أعماق الوجدان الشعبى كما يستمد منها الشعب طاقة يدافع بها عن هويته الأصيلة ضد خطر دخيل . فهنا فى ساعة الخطر ، كان الدين صنيحة تتجمع بها القوى الشعبية تحت لواء واحد ضد العدو الذى يهدد كل القيم والمقدسات .

وهكذا كانت الحوافز الوطنية والدينية متفاعلة معاً في مجال الكفاح لنيل الحقوق ، وطرده الظالمين وإسعاد المواطنين ، لا كما يتعاون رجال الدين ، والكنيسة في الغرب مع حكوماتهم في مجال استعمار الشعوب واستغلالها والتبشير بالدين المسيحي بطرق وأساليب تبوء في أكثر أمرها بالفشل ، لأنها شبيهة بأساليب القرون الوسطى . وتتنافى مع تعاليم المسيحية نفسها التي تأتي بإيقاد نار الحروب وتجريد حملات القتل وسفك الدماء باسم الدين . والدين من ذلك برىء ، براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

وما فظائع الإستعمار الصليبي في الحروب الصليبية عن أذهان المؤرخين بعيدة . وما فظائع الإستعمار الغربي الإنجليزى والفرنسى والإيطالى ، وما فعله ببلاد العرب والمسلمين من الفظائع والويلات وإراقة الدماء ظلماً وعدواناً عن أذهاننا بعيدة . من مظاهر الدعاية المسمومة ضد الإسلام والمسلمين هذا النشيد الذى كان يردده جنود الإحتلال الإيطالى في ليبيا « يا أماه أتمى صلاتك ، ولا تبكى . بل أضحكى وتأملى . ألا تعلمين أن إيطاليا تدعونى ، وأنا ذاهب إلى طرابلس مسروراً وفرحاً لأبذل دمي لسحق الأمة الملعونة ، لأحارب الإسلام ، الذى يجيز تعدد البنات للسلطان ، سأحاول بكل قوتي أن أحو القرآن » ألم يدخل « اللورد اللنبي » فلسطين ممثلاً للإحتلال وهو يقول « الآن انتهت الحروب الصليبية ؟ والمعتمد الفرنسى فى دمشق ألم يركل قبر صلاح الدين الأيوبي ، وهو يقول « لقد جئنا يا صلاح الدين » ؟

خاتمة الكتاب

استعرضنا فيما مضى دعاوى هذا الكاتب ومفترياته ، ورددنا عليها بما حضرنا من الحقائق والمعلومات ونستطيع الآن بنظرة شاملة إجمالية : أن نلاحظ أن مقال هذا الكاتب عبارة عن : محاولة جريئة تخريبية موجهة إلى العروبة والإسلام ، وتتركز في ثلاث مسالك سلكها : -

المسلك الأول : دعوته بطريقة سافرة هيسيرية ، وتحت ستار الحرية ، إلى التحلل من القيم الرفيعة التي يتحلى بها العرب والمسلمون من الشرف والفضيلة والعفاف . وكثيراً ما رأيناه يسخر من هذه الكلمات النبيلة ويدعو بجملة نادرة المثال إلى الإباحية والتهتك والإخلال كأنما يريد أن يصدر إلى بلاد العروبة والإسلام شحنات من النجاسة والقذارة التي تتحلى بها بعض المجتمعات الغربية التي ظهرت فيها فرق الخنافس المخنثة ، والدعوة علناً إلى إيجاد الجنس الثالث ، والإباحة القانونية للشذوذ الجنسي . هذه الأشياء وغيرها التي أخذ اليهود على عاتقهم نشرها ، والتبشير بها حتى انتقلوا بها من أوروبا إلى أمريكا . تنفيذاً لمخططهم الذي جاء في كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» : في قولهم «وسيطل يعمل على إشاعة الجنس ، وتمجيده حتى يفسد شباب العالم فيسهل علينا التحكم في العالم والسيطرة عليه» .

جاء في مجلة منبر الإسلام المصرية عدد المحرم ١٣٨٦ هـ صفحة ١٨٢ ما نصه «نقلت وكالة أنباء ا . ب الأمريكية يوم ١٨ الماضي إلى العالم هذا النبأ : كشفت سلسلة التحقيقات التي تجريها السلطات الأمريكية أن موجة تعاطي المخدرات والإتجار فيها لم تكن قاصرة على طالبات وطلاب جامعة «أوهايو»

وحدها ، بل تفتت في عدد كبير من الجامعات الأمريكية الكبيرة ، كما أثبتت هذه التحقيقات : أن طلبة وطالبات هذه الجامعات يمارسون العلاقات الجنسية غير المشروعة ، على أوسع نطاق ، وقد أعتقل البوليس أكثر من ٣٠ طالباً من الجامعات الأمريكية للتحقيق معهم في تهمة الاتجار بالمخدرات وبين هؤلاء الطلبة واحد من جامعة « ميامي » ألقى القبض عليه هو وزوجته أثناء محاولتهما تهريب ٥ أرطال من الحشيش . وجاء في تقرير لأحد المحققين أن نحو ألف شخص يقيمون في المنطقة الواقعة فيها جامعة « واشنطن » يتعاطون الحشيش ، ويمارسون كل أنواع الشذوذ الجنسي ، ويحقق المسئولون في جامعة « أوكلاهوما » في حث تهريب النساء إلى داخل مباني الجامعة لممارسة العلاقات غير المشروعة في نزهة الإجازة » .

بالجنس أستولى اليهود على أرض فلسطين ، ودقوا أوتادهم فيها لأول الأمر ، وبالجنس عاثوا فساداً فيها ، وأنشأوا بنات الهافانا ، وشبكات التجسس والمخبرات ، يلعب فيها دوراً بارزاً ، وبالجنس ويأحدي بنات إسرائيل واتصالها بملك فارس عادوا من الأسر البابلي إلى أورشليم لعبتهم المفضلة أينما كانوا هو الجنس ، والتأثير به ، واستعماله وسيلة لإقتناص الضحايا . وأدوات الزينة ، وملابس الخلاعة ، والصور العارية ، وكل ما يثير الجنس إنما يقوم به في أنحاء العالم اليهود ، وشركات اليهود ، وبيوتات اليهود . فالجنس عندهم هو اللغة العالمية التي يسهل التفاهم بها وتوصل إلى المطلوب من أقصر طريق .

المسلك الثاني : الطعن الجريء في دين الإسلام ، ونبى الإسلام ، ومبادئ الإسلام ، وعلماء الإسلام ؛ لإعتقاده أن هذه هي الحواظ والسيجات التي تحمي العرب والمسلمين ، وبلاد الشرق عامة من أن تصاب بجرائم هذه الأمراض الإجتماعية الفتاكة . إنها المصل الواقى الذي يعطى حصانة تامة ضد ما يفقد من الغرب من وضاعات وقاذورات ، ولقد كان الإستعمار يفظن إلى ذلك

من زمان مضى ، ويجأر بالشكوى من القرآن الكريم ، لأنه يعطى البلاد الإسلامية مناعة ضد الإستعمار ، ويثير له فيها المتاعب بما يث في أتباعه المسلمين من روح العزة والكرامة والجهاد ضد الكفرة أعداء الله الظالمين الباغين . الأمر الذى من أجله كانت المخططات الإستعمارية ، تلازمها مخططات أخرى من حملات الطعن ، والتشهير بالإسلام يضطلع بها جماعة المستشرقين الذين انكشفت لعبتهم ، ولم تنطل على أحد حيلتهم . ورد الله كبدهم فى نحرهم .
ومن هنا ننصح للقائمين على مناهج التعليم فى سائر أنحاء البلاد العربية والإسلامية : أن يجعلوا الدين : قرآناً وسنة مادة أساسية فى المدارس والجامعات . ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

المسلك الثالث : محاولة إبراز العرب والمسلمين فى صورة شعوب متخلفة ، غير حضارية (١) متجاهلاً إن كان يعرف ، أو جاهلاً إن كان لا يعرف . إن العرب والمسلمين قد قاموا على مسرح هذا الوجود بأدوار بطولية لم تقم بمثلها أمة من الأمم ، وإنهم إقتادوا القافلة الإنسانية من مراحل مظلمة بظلمات الجهل والظلم إلى مراحل مضيئة بنور العلم والعدل . فكان إنسان ما بعد ظهور الإسلام فى الشرق والغرب غير إنسان ما قبل ظهور الإسلام . كان فى حالة يرثى لها من الفوضى والإضطراب وفساد الحكم وفساد الذم والضائر وتسلط الرؤساء على المرؤوسين . فلما كان الإسلام وانتشر فى العالم بسرعة لم يعد لها نظير فى التاريخ أشاع بين الناس معانى الحق والخير والفضيلة والعدالة وحرية الرأى واحترام

(١) كانت إسرائيل فى حرب الخامس من يونية ١٩٦٧ تردد هذه النغمة ، وتدعى أنها رسوله الحضارة الأوروبية والأمريكية الى بلاد العرب والمسلمين بلاد التخلف والهمجية . وجيش الدفاع الإسرائيلى الطويل الذراع لا يقهر وهو يضرب فى الأعماق العربية . فلما كانت معركة العبور ١٩٧٣ ظهر زيف هذه الأسطورة وانقلت توازن القوى وأقبل العالم كله على استراتيجية هذا العبور ليتدارسها ، وصدر العرب لاسرائيل الهزيمة والمرارة . التى لا تزال ولن تزال تعانى من أثرها .

الإنسان لأخيه الإنسان وبساطة العقيدة الدينية . والتوفيق بين العقل والدين وبين الدنيا والآخرة . ووجد الناس فيه منهاجاً واضحاً ، موافقاً للفطر السليمة متكفلاً بسعادة الدنيا والآخرة . فما زالوا من أجل هذه المعاني النبيلة يقبلون عليه ويندمجون فيه حتى أصبح المسلمون اليوم ألف مليون نسمة فصاروا ثلث سكان العالم . في كل ثلاثة أشخاص مسلم واحد .

إن أحداث التاريخ بعد ظهور الإسلام ، صغرت أو كبرت في الشرق ، أو في الغرب . حربية أو إجتماعية ، أو حضارية ، أو علمية مردودة إلى الإسلام متأثرة به ، كصدى وانعكاس له . يقول المرحوم الأستاذ محمود العقاد في كتابه «عبقرية محمد» : -

«إن التاريخ كله بعد محمد متصل به ، مرهون بعمله ، وإن حادثاً واحداً من أحداثه لم يكن ليقع لولا ظهور محمد ، وظهور عمله ، فلا فتوح الشرق والغرب ، ولا حركات أوروبا في العصور الوسطى ، ولا الحروب الصليبية ، ولا نهضة العلوم بعد تلك الحروب ، ولا كشف القارة الأمريكية ، ولا مساجلة الصراع بين الأوربيين ، والآسيويين ، والأفريقيين ، ولا الثورة الفرنسية ، وما تلاها من ثورات ، ولا الحرب العظمى ، ولا الحرب الثانية ، ولا حادثة قومية أو عالمية مما يتخلل ذلك جميعه ، كانت واقعة في الدنيا كما وقعت لولا ذلك اليتيم الذي ولد في الجزيرة العربية بعد خمسمائة وإحدى وسبعين سنة من مولد المسيح» .

ويقول مؤلف «قصة الحضارة» «ول ديورانت» : «وإذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا : إن محمداً كان من أعظم عطاء التاريخ فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقى به في دياجير الهمجية حرارة الجو ، وجذب الصحراء ، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه ، أى مصلح آخر في التاريخ كله . وقل أن نجد إنساناً

غيره : حقق كل ما كان يحلم به ، وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين .

وقال في موضع آخر «والقرآن يبعث في النفوس الساذجة أسهل العقائد ، وأقلها غموضاً ، وأبعدها عن التقييد بالمراسم والطقوس ، وأكثرها تحراً من الوثنية ، والكهنوتية . وكان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقي والثقافي ، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الإجتماعي ، والوحدة الإجتماعية ، وحضهم على اتباع القواعد الصحيحة ، وأوجد بينهم درجة من الاعتدال . والبعد عن الشهوات لم يوجد له نظير في أية بقعة من بقاع العالم .

ويقول المستشرق المعروف «ماسينيون» : «للإسلام ماضٍ بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها ، وليس من مجتمع آخر له ، مثل ما للإسلام من ماضٍ كلل بالنجاح في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات .

ويقول المؤرخ المعاصر «هـ . ج . ويلز» في كتابه «في معالم التاريخ الإنسانية» : «إن الإسلام ساد لأنه كان خير نظام إجتماعي وسياسي ، استطاعت الأيام تقديمه ، وهو قد انتشر . لأنه كان يجد في كل مكان شعوباً ، تسلب وتظلم ، وتخوف ، ولا تعلم ، ولا تنظم . كذلك وجد حكومات أنانية سقيمة لا اتصال بينها ، وبين الشعب أصالة .

كان الإسلام أوسع وأحدث وأنظف فكرة سياسية اتخذت سمة النشاط الفعلي في العالم حتى ذلك اليوم ، وكان يهب بنى الإنسان نظاماً أفضل من أى نظام آخر ، وكان النظام الرأسمالي الإسترعاقى في الإمبراطورية الرومانية والأدب والثقافة والتقاليد الإجتماعية في أوروبا . قد انحلت انحلالاً تاماً ، وانهارت قبل أن ينشأ الإسلام .

ويقول مؤلف «قصة الحضارة» : «لقد ظل الإسلام خمسة قرون على الأقل

يتزعم العالم كله ، في القوة والنظام . وبسطة الملك ، وجميل الطباع والأخلاق
وفي إرتفاع مستوى الحياة ، وفي التشريع الإنساني الرحيم ، والتسامح الديني
والآداب والبحث العلمي والعلوم ، والطب والفلسفة» .

* * *

«وبعد» :

فقد بزغ فجر الإسلام أول ما بزغ ، والعالم تتنازع سيادته دولتان جبارتان
أحدهما شرقية وهي الدولة الفارسية ، والثانية غربية وهي الدولة الرومانية ،
وما لبث الإسلام أن ظهر على مسرح الوجود قوة ثالثة أذالت هاتين الدولتين ،
وورثت بلادهما وأشاعت فيها ، وفي أنحاء العالم كله حضارة جديدة مثالية .
واليوم تتنازع سيادة العالم قوتان جبارتان إحداهما شرقية شيوعية والثانية غربية
رأسمالية فهل يعيد التاريخ نفسه فيبرز العرب والمسلمون على مسرح الوجود قوة
ثالثة لها كيائها المستقل ، وفعاليتها المتميزة المطبوعة بطابع الإسلام وحضارته ؟
أعتقد أن ذلك قد صار وشيك الحصول . تواتت بوادره وبشائره بعد انتصار
رمضان المبارك ١٣٩٣ هـ هذا الإنتصار الذي جعل العرب والمسلمين قبله أنظار
العالم من جديد كما كان من قبل . ذلك تحقيقاً لوعده الله .

«وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض ، كما
استخلف الذين من قبلهم ، وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من
بعد خوفهم أمناً . يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم
الفاسقون» .

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٧	مقدمة الكتاب
	الفصل الأول
١٥	مكانة المرأة في الإسلام
١٥	المرأة الأم
١٧	المرأة الزوجة
٢٩	المرأة البنت
٣٠	المرأة الأخت
٣٠	المرأة عامة
٣٧	المرأة ينبوع الحياة تشارك في صنعها
٤٥	الإسلام يصون عرض المرأة لصالح المجتمع
	الفصل الثاني
٥٣	دعاوى جورديان
٥٣	لا وساطة بين المرأة وربها
٥٦	لا غسل من المرأة إلا بعد الجماع
٥٧	اقرأ التاريخ يا جورديان

الصفحة

٥٨	المرأة المسلمة والمرأة الغربية
٦١	تعدد الزوجات والجوارى وعفة الزوجة
٧٥	شهادة المرأة أمام القضاء
٧٨	البكارة و ليلة الزفاف
٨٠	الختان والحشيش وعقدة الجنس
٨٣	الربا
٨٥	الخطيئة الآدمية والغريزة الجنسية
٩٢	إنذار من جورديان
٩٥	علماء الدين الإسلامى
٩٧	سل التاريخ يا جورديان
١٠٣	خاتمة الكتاب
١٠٩	فهرس الكتاب
١١١	ما رأيك